

مجلة البيان - العدد ١٦ ، جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ / فبراير ١٩٨٩ م

الافتتاحية

إلى أين يتجه التعليم... ؟

إن مشكلة التعليم من القضايا التي تحتاج إلى مراجعة مستمرة ، وتتبع أهميتها من الحاجة الملحة للعلم بمفهومه الواسع الشامل لبناء المجتمعات الحديثة ، وإن الرواد في كل مجتمع هم رجال التربية والتعليم ، فهم القادة الحقيقيون ، بعيداً عن مظاهر البروز والادعاء ، وهم الذين يقع عليهم العبء الأكبر في توجيه الأجيال وتسليحها بالأهداف الصحيحة ، والوسائل الفعالة ، وأي نجاح للمجتمع ينبغي أن يرجع في النهاية إليهم ، كما أن أي إخفاق في مسيرة هذا المجتمع فمرده إلى قيادتهم ، وإلى الخطأ في الأسس التي اختيروا بمقتضاها.

نظرة عجلى :

لو ألقينا نظرة سريعة على الأربعين عاماً الماضية من أجل تقويم الحركة العلمية والتعليمية في أوطاننا ؛ فسوف نعثر على جانبين ، لكل منهما أنصاره وحججه ، أما سبب التحديد بهذه المدة فلأن هذه المدة هي التي أعقبت خروج الأجنب الناصيين من بلادنا على وجه التقريب ، وأصبحنا مالكين زمام أنفسنا ، ونقرر مصائرنا بعيداً عن الوصايا - وإن كانت هذه النقطة مجال جدل طويل ليس مكانه -.

وأربعون عاماً فترة كافية ولا بأس فيها في حساب الأرباح والخسائر لأمة من الأمم ، أو لمجتمع من المجتمعات.

الجانب التفاولي :

لقد خرج المستعمر الأجنبي وجميع أفراد الأمة يحدوهم الأمل ، وتملؤهم الحماسة لبناء المستقبل ، وكان عليهم أن يتلافوا التقصير الذي رزحت تحته أمتهم قروناً طويلة ، وأن ينتشلوها مما صارت إليه من التخلف والتبعية المفروضة التي تضافرت على فرضها عوامل داخلية وخارجية ، ولم يكن من حل غير العلم ، كماً ونوعاً.

إن العدل يقتضينا أن نفرح ونبتهج عند مقارنتنا لحالنا الآن بحالنا عشية خروج الاستعمار فإن نسبة المتعلمين إلى مجموع السكان قد ارتفعت ارتفاعاً مطرداً ، ولا تزال في ارتفاع ، وقد تضاعفت إلى جانب ذلك عدد المدارس عشرات المرات ، وإن مما يحسب لهذه الفترة هو إلزامية التعليم الابتدائي في أغلب البلاد العربية ، وبعد أن كان التعليم الجامعي وقفاً على الفئات الميسورة والغنية صار كذلك حقاً للفئات الفقيرة ، واقتحم المتعلمون من هذه الفئات ما كان مقصوراً على غيرهم ، وتبوؤوا أمكنة كانت بعيدة المنال ، فأصبحت ممكنة بفضل التعليم.

ويمكن تلخيص الجوانب الحسنة في مسيرة التعليم ، والتي ينظر إليها المتفائلون بما يلي:

أصبح التعليم ضرورة اجتماعية بعد أن كان ترفاً وميزة لفئة معينة.

تحول المجتمع كله إلى مهتم بالتعليم ، ومشارك في إنجازاته ودفع نهضته.

بفضل التعليم ارتفع المستوى الاجتماعي لفئات وطبقات في المجتمع كانت تعيش معيشة هامشية.

أزال التعليم كثيراً من الفوارق والأمراض الاجتماعية التي كانت ترجع بالسوء على بنية المجتمع.

جعل جميع أفراد الأمة يشعرون بذواتهم ، ويقدررون إمكاناتهم وحقيقتهم في الوجود ، وعزز الثقة الجماعية بالنفس.

هذه أمثلة للجوانب الإيجابية للنهضة التعليمية يمكن أن يضاف إليها كثير من النقاط الأخرى.

الجانب التشاؤمي :

على الرغم من الاعتراف بكل مزايا الفترة الماضية فيما يتعلق بالإنجازات التعليمية على المستوى الفردي والعام ؛ إلا أنه يبقى الكثير الذي لا بد من أن يطرح ، ومن ذلك .

لقد كان الاعتقاد أن تتمحي الأمية من المجتمعات العربية ولكن هذا لم يحدث . والأمر الطبيعي أن تكون البدايات بسيطة ومتواضعة ، ثم تقوى وتشتد ، ولكن المشاهد أن نوعية التعليم قبل أربعين سنة كانت أفضل مما هي عليه الآن - وهذه قضية لا يختلف عليها أحد - صحيح أن تقدماً حصل من الناحية العددية ، ولكنه تقدم سطحي ، وتمدد أفقي على حساب العمق والجودة . ومن السلبيات التي انحطت بالتعليم النظرة الخاطئة إليه ، واعتباره وسيلة لرفع المستوى المادي ، دون اعتباره غاية قائمة بنفسها .

إذا أحب أحد أن يناقش التعليم على مستوى العالم العربي فإنه يلحظ شيئاً من التفاوت الذي أدى إلى خلل وعيب في البناء التعليمي ، فبينما نجد بلاداً كانت فيها النهضة التعليمية أسبق منها في غيرها ؛ نجد أن هذه البلاد السابقة قد هبط مستوى التعليم فيها لأنها أصبحت معنية بسد النقص والحاجة عند غيرها من جهة ، وكذلك فإن الحالة المادية أصبحت تتحكم بالمستوى التعليمي ، فنظراً للضائقة المالية التي تعيشها هذه الدول فقد أصبح تخريج الخريجين عندها استثماراً (وهذا من حيث المبدأ لا غبار عليه ولا مانع منه بشرط مراعاة جودة الإنتاج) وترتب على ذلك أن انصرف المعنيون إلى تكثير عدد المتخرجين لتغطية الطلب في السوق ، وكان ذلك على حساب النوعية المؤهلة تأهيلاً كافياً .

اهتزاز قيمة المعلم الاجتماعية ، وتقويمه تقويماً مادياً فقط ، فبينما ارتفع المستوى المادي بتسارع شديد لكثير من أصحاب المهن والحرف اليدوية التي لا تتطلب إعداداً علمياً أو تثقيفياً ، وأصبح هؤلاء ذوي امتيازات مادية لا تنكر ولا تحجب ؛ ظل المستوى المادي للمعلم متخلفاً ، والتحسينات التي تزداد عليه تحبو حبواً بالمقارنة مع ارتفاع مستويات المعيشة والغلاء التي تضرب المجتمعات عامة ، ومجتمعاتنا العربية بصورة خاصة .

وأصبحت مهنة التعليم من المهن المحترقة في المجتمع ، وهذه حقيقة لا يمكن أن تنكر ، على الرغم من كل ما يقال من كلام إنشائي في مناسبات تكريم المعلم ، بل إن هذا المدح غير العملي ، والإشادة الباردة بالمعلم ودوره في المجتمع ليست إلا من قبيل معالجة خلل موجود في النظرة العامة السائدة تجاه مهنة التعليم ، ولو سألت معلم أو مدرس سؤالاً بسيطاً: هل يحب لولده أن يمتحن مهنة التعليم في مستقبل حياته؟ لكان الجواب بالقطع: لا .

إن لهذا دلالة يجب أن يقف المرء عندها ، وأن يحللها تحليلاً يقفه على أسبابها ودوافعها ونتائجها . وعندما يشعر المعلم أنه أصبح مهاناً لا من قبل الأغنياء والميسورين الذي جلب كي يعلم أولادهم فحسب ! بل من قبل فئات أخرى متخلفة علمياً وفكراً عنه ، ولها نفس منبته ، ومنحدرة من مستوى اجتماعي قريب من مستواه؛ عندما يعيش المعلم هذا الشعور، فهل يلام على قلة إخلاصه وموت طموحه نحو تقديم الأفضل؟! .

هذه لمحات حول قضية هبوط المستوى التعليمي في مدارسنا ، وتظل هذه القضية طويلة ومتشعبة وبحاجة إلى بحث وتحليل ، وحسبنا أننا أشرنا إشارة إلى ذلك ، وأنا فتحنا الباب للقراء الكرام لتناول هذه المسألة المهمة بالتفصيل والتعليق .

وإننا نرحب بالمساهمة في ذلك على صفحات مجلة "البيان"، على أن تكون المعالجة عامة لا تخص بلداً دون بلد، ولا تتناول من الظواهر إلا ماله تعلق بالضعف العام الذي انحدر إليه المستوى التعليمي، وأسباب ذلك، ونسبة ارتباط كل منها بالمناهج، أو الخطط التعليمية، أو خطط إعداد المعلمين.
وعلى الله قصد السبيل..

مجددون معاصرون رد على اعتراض

اتصل بنا عدد من الأخوة الأفاضل وقالوا ماذا تقولون عن بعض هؤلاء العلماء المعاصرين الذين نعتموهم بالتجديد؟ ... ألا ترون أنهم من مدارس مختلفة لا يجمعها جامع، ولا يربط بينها رابط؟... هل تريدون إرضاء الناس كلهم مع أن إرضائهم غاية لا تدرك؟! غفر الله لهؤلاء الأخوة الكرام! المشكلة أنهم من طلاب العلم، وطالب العلم يحترم آراء الآخرين، ولا يتسرع في إصدار الأحكام أو التهم.

وكما وعدنا القراء، سوف نمضي في الحديث عن كوكبة من العلماء المعاصرين الذين نفع الله بهم، وسنذكر الجوانب التجديدية لكل علم من الأعلام، وفي الحلقة الأخيرة نجيب على أسئلة الذين اتصلوا بنا والذين لم يتصلوا بنا، ونوضح انسجام ما نكتبه مع المنهج الذي التزمنا به في بداية هذا البحث. ومن حقنا على إخواننا أن يقرأوا ما نكتبه بإمعان وتجرد!! فإن وافقونا فخير وبركة، وإن خالفونا فالمسألة من المسائل التي يجوز فيها الخلاف، نسأل الله أن يرزقنا وإخواننا الصبر والتجرد، إنه سميع مجيب.

حسن البناء

لن نتحدث حديثاً تقليدياً عن ولادة حسن البناء -رحمه الله- وسيرة حياته، فالرجل ليس مجهولاً، وهناك عشرات الكتب التي كتبت عنه، ناهيك عن كتبه التي لا تكاد تخلو منها مكتبة، وسوف نقسم الموضوع إلى دروس، محاولين الاختصار قدر الاستطاعة:

الدرس الأول:

ولد حسن البناء -رحمه الله- عام ١٩٠٦، وأسس جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨، وقتله أعداء الله عام ١٩٤٩، وهكذا تكون سني عمره عندما أسس حركة الإخوان ٢٢ عاماً وعندما توفاه الله ٤٣ عاماً. وكان خلال هذه الفترة حديث الناس في مصر كلها، وفي البلدان العربية، بل وفي العالم كله. ولم يكن -رحمه الله- متفرغاً للعمل الإسلامي، فلقد كان مدرساً معظم النهار، وكان رب أسرة ينفق عليها، ويرعى شؤونها، وكان مؤسس جماعة إسلامية كبيرة تنتشر شعبها ومراكزها في جميع أرجاء مصر.

إذا نظرنا إلى سيرة البناء وهو طالب صغير في أوائل المرحلة الإعدادية نجد أنفسنا أمام طالب يختلف عن غيره من طلبة عصره، بل ومن طلبة هذا العصر... ها هو يتحدث عن نفسه فيقول بأنه يقسم وقته "بين الدرس نهائياً، وتعلم صناعة الساعات التي أغرم بها بعد الانصراف من المدرسة إلى صلاة العشاء، ويستذكر الدروس بعد ذلك إلى النوم، ويحفظ حصته من القرآن الكريم بعد صلاة الصبح حتى يذهب إلى المدرسة". [مذكرات الدعوة والداعية / ١٢].

ننتقل من الحديث عن البنا وهو طالب في الإعدادية إلى الحديث عنه وهو قائد جماعة: يخطط لها يربى جمهور شبابها... يحاضر هنا وهناك.. يؤسس الصحف والمجلات ويديرها.. وهو إلى جانب هذا وذاك مدرس في مدارس الدولة ، وفي العطلة الصيفية هل كان يستجم مع عائلته في قرية هادئة ليس فيها صخب ولا ضوضاء؟! هل كان يغادر مصر للسياحة والمتعة المشروعة؟! إن حياة المجدد لا تعرف إثارة العافية والراحة ، لاسيما وهو يشعر بأن لأهل الأرياف والمناطق النائية حقاً عليه وعلى إخوانه ، فرحلة من رحلاته بدأت في ١١ ربيع الثاني وانتهت في ٩ جمادى الأولى من عام ١٣٥٢ زار خلالها : أبو صوير شرقية، الإسماعيلية ، السويس ، بور سعيد، الدقهلية بفروعها ، طنطا، شبراخيت ، المحمودية [بحيرة] ، دمنهور [بحيرة]، شلنج [قليوبية]. [المذكرات/١١٥٤].

ويقول أحد مرافقيه:

"كان يقطع الوجه القبلي كله بلداً بلداً ، وقرية قرية في عشرين يوماً ، في بعض الأحيان يصبح في بنى سويف ، ويتغدى في ببا ، ويمسي في الواسطي ، ويبيت في الفيوم... وهكذا كان ينام ساعة أو بعض ساعة ، وفي الوقت الذي يضع فيه رأسه على الوسادة ينام ونحن نتحدث من حوله". [الإخوان المسلمون والمجتمع المصري/١٤].

أليس في حياة هذا الرجل درس للكسالى الذين يقتلهم الفراغ ومع ذلك يتحدثون عن ضيق الوقت؟! أو ليس في حياة هذا الداعية المجدد عبرة للذين يتباكون على واقع المسلمين اليوم ، ولا يقدمون للعمل الإسلامي إلا فضلات أوقاتهم ، فالوظائف تستهلك معظم أوقاتهم ، والزوجة تستهلك بقية الوقت وهي لا تفتأ تردد "خيركم خيركم لأهله" والمسكين يخلط بين فهم خاطئ للحديث وبين طاعة امرأة لا يرضيها في كثير من الحالات إلا أن تستحوذ عليه وتحول بينه وبين الناس الطيبين ، وبينه وبين الدعوة والجهاد في سبيل الله.

أرأيت كيف يبارك الله بأوقات العلماء المخلصين ، فأولاد حسن البنا فيما كتبوه قالوا: لقد بذل جهداً في تربيتنا ، وكان يجلس معنا ويداعبنا ، وشقيق البنا قال فيما كتبه: لقد كان أستاذاً وأخي. ولم ينس فضله عليه في تربيته وإعداده ، ومما يجدر ذكره أن حسن البنا كان النجل الأكبر لأبيه الشيخ عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي.

الدرس الثاني :

اتصل حسن البنا -رحمه الله- بعلماء عصره وسمع منهم وناقشهم ، وكان يعترف بفضلهم فيما كتبه من مذكرات.

وعندما أعلن الطاغية أتاتورك عن هدم الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ، كان عمر البنا ١٨ سنة وكان في أوج عطائه ، يتحدثون عن هذه المصيبة التي رزى بها الإسلام والمسلمون ، ويتنادون لعقد مؤتمرات وندوات - كعادتهم - يطالبون فيها بعودة الخلافة... وكان رشيد رضا في مجلته - المنار - ينادي بالجماعة والعمل الجماعي ، وأنه لا سبيل إلى مواجهة أعداء الإسلام إلا بوجود جماعة... ومع ذلك بقيت أفكار رشيد رضا نظرية ، ولم ينجح أو بالأحرى لم يسع إلى تأسيس هذه الجماعة.

ومن جهة أخرى فقد رافق هدم الخلافة انتشار الفساد والنشاط الصليبي الهدام في مصر... أشار البنا -رحمه الله- في مواضع مختلفة في مذكراته إلى هذه الآفات (انظر إلى ما كتبه تحت عنوان: موجة الإلحاد والإباحية في مصر ، ص ٤٩ ، وما كتبه عن التبشير ، ص ١٤٧ من مذكراته).

فكان الشيخ حسن البنا -رحمه الله- كالليث الجريح لا يهدأ ولا يستقر... يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويتصل بالعلماء ويكتب إلى المسؤولين... أنظر إلى لقائه مع الشيخ يوسف الدجوي [علم من أعلام الصوفية وخصم من كبار خصوم الدعوة السلفية] ، تحدث -رحمه الله- عن هذا اللقاء بأدب ولكنه أوضح مقصده ، فصور لنا أن الشيخ كان يائساً :
 "وانتهى ذلك كله إلى أنه لا فائدة من كل الجهود ... وأوصاني ?? أن أعمل بقدر الاستطاعة ، وأدع النتائج لله ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها".

ويصور لنا مشهداً آخر في هذه المقابلة يوم أن قدم الشيخ محمد سعد حلويات رمضان ، وتعمد البنا أن يجلس إلى جانب الشيخ الدجوي ، وأخذ الدجوي حلوى وقدمها إلى البنا ليأكلها فرفض الأخير تناولها وقال. " لو كانت رغبتى بهذه النقل وأمثاله لاستطعت أن أشتري بقرش وأظل في منزلي ولا أتكلف مشقة زيارتكم" وانطلق يتحدث عن الفساد والإلحاد وواجب العلماء. وإذا كان الشيخ الكبير الدجوي يائساً فالمجدد لا ييأس ولا يتراجع.. أنظر إليه يقول : "لم يعجبني طبعاً هذا القول".... وأمام إصرار البنا أمر الدجوي برفع الحلوى دون أن يتناولوا منها شيئاً، واتفقوا على عقد اجتماع يضم نخبة من العلماء ، وتم ذلك ، وأسفرت هذه اللقاءات عن ظهور مجلة الفتح التي كان يرأس تحريرها محب الدين الخطيب . [المذكرات/١٥١] .

كانت أجواء ومجالس أمثال هذا الشيخ لا تسمح لشاب صغير أن يخاطب الشيخ بهذا الأسلوب. قال البنا : "وكننت أتكلم في حماسة وتأثر وشدة ، من قلب محترق مكلوم ، فانبرى بعض العلماء الجالسين يرد علي في قسوة كذلك ، ويتهمني بأنني أسأت إلى الشيخ وخاطبته بما لا يليق ، وأسأت إلى العلماء والأزهر ، وأسأت بذلك إلى الإسلام القوي العزيز ، والإسلام لا يضعف أبداً والله تكفل بنصره" [المذكرات/٥٢] .

وكان -رحمه الله- يعلم أن هذه الجهود ستبقى ضعيفة جزئية لأسباب لا تغيب عن ذهن المعني مثله ، وليس هذا الذي يتطلع إليه المجددون ، إذن لابد من عمل جماعي شامل... وعرف البنا العمل الجماعي مذ كان طالبا في الإعدادية ، فلقد كان رئيس إدارة " جمعية الأخلاق الأدبية " وكان لهذه الجمعية نظام داخلي... ثم أسس بعد حين " جمعية منع المحرمات " وكان مع زملائه يرسلون رسائل للعصاة والمقصرين يأمرونهم فيها بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر عاماً.

وانتسب إلى الطريقة الحصافية ، وكان عمره أربعة عشر عاماً ، وبإيع شيخ الطريقة وأسس مع أحمد السكري " جمعية الحصافية الخيرية " ، وكانت مهمتها نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، ومقاومة المنكرات ، ثم تخرى عن الطريقة والجمعية عندما أدرك أن حاجة المسلمين أكبر من ذلك بكثير.

وفى القاهرة - وكان عمره ستة عشر عاماً - انتسب إلى " جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية " ، وإلى " جمعية الشبان المسلمين ". قال -رحمه الله- : " وأذكر أنني كتبت توأ إلى عبد الحميد بك سعيد معلناً اشتراكي بالجمعية ، وواظبت على دفع الاشتراك... ".

وكان الدافع إلى انتسابه إلى هذه الجمعيات كلها رغبته في الإصلاح ، وشعوره بأهمية العمل في جماعة ، ولعل هذه الجماعات كانت تتناسب مع وعيه في تلك المرحلة غير أنه يكتشف بعد قليل أن دورها جزئي محدود ، وإذن لابد من جماعة تتسم بالشمولية، ولهذا أسس جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ ، وحدد فقرات هذا المنهاج في النقاط التالية :

- ١- نريد أولاً الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته ، وفي خلقه وعاطفته ، وفي عمله وفي تصرفه. فهذا هو تكويننا الفردي.
 - ٢- ونريد البيت المسلم... ونحن لهذا نعني بالمرأة ، ونعني بالطفولة.
 - ٣- ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله.
 - ٤- ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد... ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه ، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ، ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها ، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره ، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام.
 - ٥- ونريد بعد ذلك أن نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامي.
 - ٦- ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حيناً من الدهر.
 - ٧- ونريد بعد ذلك ومعه أن نعلن دعوتنا على العالم... وأن نعمم بها آفاق الأرض ، وأن نخضع لها كل جبار.
- ثم يقول: بأن ناساً سيقولون هذا خيال وأوهام. وذلك هو الوهن الذي قذف في قلوب هذه الأمة ، فمكن لأعدائها فيها... ثم قال : وإنما نعلن في وضوح وصراحة أن كل مسلم لا يؤمن بهذا المنهاج ولا يعمل لتحقيقه لا حظ له في الإسلام (١) فليبحث له عن فكرة أخرى يدين بها ويعمل لها. وليس في الطريقة الحسافية في جمعية الشباب المسلمين أو في جمعية مكارم الأخلاق مثل هذه الأهداف التي رسمها البنا -رحمه الله- لجماعته.

الدرس الثالث :

عندما قطع البنا مراحل مهمة في بناء جماعته ، وعندما توسعت هذه الجماعة وعظم شأنها في مصر، وكثر أتباعها ، كان لابد أن يضع لها منهجاً علمياً تتربى عليه ، ولهذا فقد طلب من الشيخ "سيد سابق" - وكان من كبار العاملين في هذه الجماعة - أن يقوم بتأليف كتاب في الفقه ، واتفق معه على سمات هذا الكتاب ، فقام سيد سابق بتأليف كتاب " فقه السنة" ، وكتب الشيخ حسن البنا تقدمته ، وأصبح مقررأ في منهج الجماعة.

وكان الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - كما عودنا - منصفاً عندما عدّ تأليف وتدریس هذا الكتاب مكرمة من مكارم البنا رحمه الله ، لاسيما وقد جاء هذا الحدث في وقت كانت تهيمن الصوفية والمذهبية على أجواء العلماء والمعاهد والجماعات الإسلامية في مصر ، ووجد هذا الكتاب والحمد لله رواجاً واسعاً وطبع طبعات كثيرة ، وفي هذا دليل على أن المستقبل للسنة وليس للتقليد ، وللتعصب المذهبي المذموم.

وأراد رحمه الله تربية أتباعه على التمسك بالكتاب والسنة ، وحذرهم من البدع والجمود والخرافات، ومن تقديس أقوال الرجال وتقديمها على الكتاب والسنة ، قال رحمه الله :

"وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ، ولكننا لا نعرض للأشخاص - فيما اختلف فيه - بطعن أو تجريح ، ونكلهم إلى نياتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدموا". [رسالة التعاليم].

ولاشك أن كلاً يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، والبنا رحمه الله بلباقته وحسن تعبيره ، يصور لنا بشكل آخر تجربته مع الطرق وشيوخ الصوفية ، ومن غير شك كان يحزن من شدة تقديس الأتباع والمريدين لشيوخهم ، انظر إليه وهو يحدثنا عن أتباع الشيخ الدجوي كيف ردوا عليه بقسوة لأنه خاطب الشيخ بما لا يليق... وبإساءته للشيخ أساء للعلماء والأزهر والإسلام... والبنا أراد من الشيخ أن ينهض لمحاربة الفساد والإلحاد في مصر فكيف أساء للإسلام !؟

وهؤلاء تربوا على أن شيخهم لا يقول إلا الحق ، وهو ظل الله في الأرض ، وأوامره ونواهيه دين لا يجوز مخالفتها أو الخروج عليها !! والبنا لا يريد هذه التربية المنحرفة. لا يريد أن يكون بين أتباعه كما كان الدجوي بين أتباعه ، ولهذا علمهم وأكد في رسالة التعاليم بأنه ليس معصوماً ، ويجب أن لا يقبلوا من كلامه إلا ما كان موافقاً للكتاب والسنة ، ومن خالف ذلك فقد أساء للبنا ودعوته.

الدرس الرابع :

واجهته كما واجهت غيره من المجددين صعوبات كثيرة ، وتحديات جمة ، فما تراجع ، ولا ضعف ، ولا قبل الدنية في دينه ودعوته.

- حاربه المستعمرون الإنجليز بوسائلهم المعروفة.
- وحاربه فاروق وزبانيته ، وهم الذين دبوا محاولة اغتياله.
- وحاربه حزب الوفد بإمكاناتهم الضخمة ، وشنوا عليه حملة إعلامية كاذبة ظالمة ، وكانت صحفهم تخرج كل يوم وفيها تشهير هابط بحسن البنا وأهدافه ونواياه ، والناس يتأثرون بالإعلام ، وكان قادة حزب الوفد مزيجاً من العلمانيين والأقباط.
- وحاربته بقية الأحزاب الأخرى بوسائل لا تختلف عن الوسائل التي استخدمها حزب الوفد.
- وحاربه شيوخ السلطة لأن أسيادهم - فاروق والوفد - حاربوا البنا ، ولأن الناس التفوا حول البنا ، وانفضوا من حولهم وتناقص عدد الذين يقبلون أيديهم.
- وحاربه ضعاف النفوس من رفاق دربه الذين لم يجدوا عنده ما كانوا ينتظرون من أطماع ، فتخلوا عنه ، وانضموا إلى حزب الوفد ، واستخدمهم الحزب في حملته الإعلامية الفاجرة ضد حسن البنا.

وكان الرجل يتوقع مثل هذه المعوقات ، وتنبأ بها منذ بداية الطريق ، وكان قد وضع لها الحلول الناجعة... ومن هنا نخرج بفائدتين :

الأولى :

هذه الأحزاب الجاهلية كالوفد والبعث وغيرهما ليس فيها خير ولا أمانة ، وقادتهم يعلمون أن أهواءهم تتعارض مع تعاليم الإسلام وأهدافه ، فقد يصدقون في تحالفهم مع الشيوعية والصليبية والاستعمار الغربي والباطنية أما مع الإسلام فيستحيل ، والله سبحانه وتعالى حذرنا منهم بقوله : ((ولا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ)) [هود: ١١٣] وقال: ((لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...)) [المجادلة: ٢٢]

الثانية :

يظن بعض السذج أو المهزومين أنه من الممكن أن تقوم دعوة لها أهداف نبيلة ، وأن تتسع هذه الدعوة وتحقق أهدافها دون أن تواجهها تحديات وافتراءات وأباطيل ، أو قد يتحدثون عن الصعوبات ، لكن حديثهم يبقى نظرياً ، فإذا أصبحت التحديات حقيقة ، ضعفوا وارتكبوا واضطربوا ، وفي حالة الاضطراب والضعف ينحون باللائمة على أفراد منهم لأنهم سبب هذا البلاء... ليت هؤلاء يدرسون في كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- سنن الله في ابتلاء الدعاة والجماعات الإسلامية... ليتهم يطيلون التأمل في قراءة وتدبر معاني قوله تعالى : ((أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّنَتْهُمْ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)) [البقرة: ٢١٤].

وقوله :

((أَلَمْ * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)) [العنكبوت: ١-٣].

لقد اشترى الإنكليز وفاروق والأحزاب ذمم بعض كبار الأدباء والمفكرين ، وكتب أحدهم ذات مرة يقول بأن حسن البناء من أصول يهودية ، ودليله على ذلك أنه يعمل في تصليح الساعات وهذه الصناعة يحتكرها اليهود... ولسنا في صدد الرد على أقوال هذا المفترى ، ولكن نشير إلى أن مثل هذا القول اتهم به الرافضة ومن يدور في فلكهم الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ومن قبل اتهم المشركون والمنافقون واليهود رسول الله وأهل بيته وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بمختلف الاتهامات الشنيعة الباطلة.

وقصارى القول مضى خصوم البناء... مضى فاروق وإذا ذُكر تذكر انحرافاته وفساده ، وسوء حاشيته... ومضى الإنكليز وأعوان الإنكليز غير مأسوف عليهم... ومضى قادة الأحزاب الجاهلية بأوزارهم ، وبقي ذكر حسن البناء الطيب العطر ليس في مصر وحدها بل في العالم كله ((فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ)) [الرعد/ ١٧].

الهوامش:

١- من يقرأ كتب البناء ورسائله يعلم أنه لم يرد بهذه العبارة تكفير أحد من الناس ، ولهذا رأينا التنبيه.

لا تقولوا الباطل

أخذ الله العهد على العلماء ومن يتصدى للدعوة أن لا يكتنوا العلم ، ويبيئوه للناس ، ولا يخشوا أحداً إلا الله ، وقد كان شرار أهل الكتاب علماؤهم ورهبانهم بما يكتنون من البيئات وبما يشترتون بآيات الله ثمنا قليلا ، وفضل الله هذه الأمة فجعل علماءها خيارها ، فأعطوا الكلمة حقها ورعوها حق رعايتها ، والأمثلة في تاريخنا كثيرة ، جاء في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أن أبا جعفر الأنباري قال له عندما امتحن ليقول بأقوال المعتزلة الباطلة : "يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجبين خلق ، وإن أنت لم تجب ليمتنع خلق من الناس كثير ، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت ، ولا بد من الموت ، فاتق الله ولا تجب فجعل أحمد يبكي ويقول : ما شاء الله" [سير أعلام النبلاء ٢/١١].

وجاء أيضاً : قال المروزي : يا أستاذ إن الله قال ((وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)) ، قال: يا مروزي اخرج فانظر ، فخرجت إلى رحبة دار الخلافة ، فرأيت خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر ، فقال لهم المروزي: ماذا تعملون؟ قالوا: ننظر ما يقول أحمد ونكتبه ، فدخل فأخبره ، فقال: يا مروزي: أضلُّ هؤلاء كلهم .

أراد هذا الإمام المبجل أن يضحى بنفسه ولا يفسد عقائد الناس لأنه متبع ومقتدى به، وبعض من يقتدي بهم اليوم من الدعاة ، وفي غمرة فقدان الوعي الشامل والاجتهاد الدعوي الصائب يقعون في ما استطاع الإمام أحمد أن يبتعد عنه ، سواء بتزكية من لا يستحق التزكية، أو بتبرير لأوضاع غير سليمة، فيتبعهم الناس ويؤملون الخير ويستبشرون، ولكن آمالهم تخيب بعدئذ.

وإذا كنا نحن المسلمين مأمورين بقول الحق في تقويم الناس ، وأن نعدل حتى في لحظات الغضب والشنآن ؛ فهذا في معرض التقويم الشامل فنقول عن الشجاع شجاع ولو كان كافراً أو فاسقاً ، ونقول عن فلان أنه خدم بلاده وأفادها من ناحية دنيوية في معرض الاعتراف بالواقع ، وهذا كله عندما تكون الصورة واضحة في أذهان الناس ولا نلبس عليهم أمور دينهم.

ونحن نعلم أنه لا أحد يكره أمثال هؤلاء الدعاة على أقوال تحسب على الإسلام والمسلمين وهي ليست بذاك ، وقد يظنون أن هذا فيه مصلحة للدين ولكن الحقيقة أن مفسدتها أكثر من مصلحتها. ولذلك نقول لهؤلاء مخلصين مشفقين : إذا كنتم لا تستطيعون قول الحق فلا تقولوا الباطل ، وذاك أضعف الإيمان.

هجر المبتدع @

الشيخ بكر أبو زيد

تكلم المؤلف في الحلقة السابقة عن مقاصد الإسلام في الهجر ، وعن أهمية ذلك الهجر لردع المبتدع وإشعاره بانحرافه وابتعاده عن الطريق السوي ، ثم تكلم عن أنواع الهجر فقسمها إلى ثلاثة أنواع، تكلم في الحلقة السابقة عن النوع الأول وهو هجر الترك، وفي هذه الحلقة يكمل أنواع الهجر.

الثاني : الهجر لاستصلاح أمر دنيوي ، أي (الهجر لحق العبد) : وفيه جاءت أحاديث الهجر بما دون ثلاث ليال، رواها جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، بأسانيد في الصحيحين وغيرها (١) ، وجميعها تفيد أن الشرع لم يرخص بهذا النوع من الهجر بين المسلمين إلا بما دون ثلاث ليال ، كما لم يرخص في إحداد غير الزوجة أكثر من ثلاث.

ومن الهجر هنا : هجر الوالد لولده ، والزوج لزوجته ، وقد هجر النبي صلى الله عليه وسلم نساءه شهراً.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تتناجشوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال".

وبعد أن بين الخطاب رحمة الله تعالى: أن ما وراء الثلاث على المنع قال: "فأما هجران الوالد ولده والزوج لزوجته، ومن كان في معناهما فلا يضيق أكثر من ثلاث، وقد هجر رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه شهراً". اهـ (٢)

وهذا النوع من الهجر من مباحث الرقاق والآداب.
النوع الثالث : الهجر قضاء ، وهو من العقوبات التعزيرية للمعتدين ، وهذا يبحثه الفقهاء في باب التعزير(٣).

المبحث الثالث

شروط الهجر :

الهجر الشرعي للفجار من المبتدعين ، والفساق (عبادة) ، والعبادة لا بد من توفر ركنيها: الإخلاص ، وهو ميزان الأعمال في باطنها. والمتابعة ، وهو ميزان الأعمال في ظاهرها. فلا بد من أن يكون الهجر : خالصاً صواباً ، فالهجر لهوى النفس: ينقض الإخلاص ، والهجر على خلاف الأمر : ينقض المتابعة. والله أعلم.

المبحث الرابع

صفات الهجر : (٤)

الأصل في الهجر هو الإعراض بالكلية عن المبتدع والبراءة منه. ومن مفرداته :
 عدم مجالسته.
 الابتعاد عن مجاورته.
 ترك توقيره.
 ترك مكالمته.
 ترك السلام عليه.
 ترك التسمية له.
 عدم بسط الوجه له مع عدم هجر السلام والكلام.
 عدم سماع كلامه وقراءتهم.
 عدم مشاورتهم.
 وهكذا من الصفات التي يتأدى بها الزجر بالهجر ، وتحصل مقاصد الشرع.

المبحث الخامس

منزلة الهجر من الاعتقاد :

يؤصل علماء الإسلام (هجر المبتدع ديانة) تحت القاعدة العقدية الكبرى (قاعدة الولاء والبراء) (٥). ومفهوم هذه القاعدة الشريفة لدى أهل السنة والجماعة هو : الحب والبغض في الله ، فهم يوالون أولياء الرحمن ، ويعادون أولياء الشيطان ، وكلّ بحسب ما فيه من الخير والشر. وفي حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره المرء أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" متفق عليه (٦). وعن أبي إمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب الله ، وأبغض الله، وأعطى الله ، فقد استكمل الإيمان» رواه أبو داود والضياء(٧). يحيى بن معاذ : (حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالجفاء)(٨). وهذه القاعدة من مسلمات الاعتقاد في الإسلام ، لكثرة النصوص عليها من الكتاب والسنة والأثر(٩).

ومن أولى مقتضياتها - التي يثاب فاعلها ويعاقب تاركها - البراءة من أهل البدع والأهواء ، ومعاداتهم ، وزجرهم بالهجر ونحوه ، على التأييد حتى يفيئوا ، وهذا موفور في عامة كتب اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠) .

واكتفى بما أصله الإمام أبو إسماعيل الصابوني م سنة ٤٤٩ هـ رحمه الله تعالى إذ قال : (ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه ، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم ، ولا يسمعون كلامهم ، ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الديني ، ولا يناظرونهم ، ويرون صون أذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالأذان قرّت بالأذان وقرت بالقلوب ضرّت وجرّت إليها من الوسواس والخطرات الفاسدة ما جرّت ، وفيه أنزل الله عز وجل قوله ((وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)) .

ثم ذكر علامات أهل البدع ، وعلامات أهل السنة ، ثم قال : (واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم ، والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم...) ١ هـ (١١) .

والعقوبة بالهجر للمبتدع إحدى العقوبات الشرعية التي ينزلها أهل السنة بالمبتدعة ، حسب البدع والأهواء التي يتلبسون ، بها ، ومنها ما تقدمت الإشارة إليه . والله أعلم .

المبحث السادس

الأدلة من الكتاب والسنة على هجر المبتدع ديانة :
هذا التأصيل العقدي : الزجر بالهجر للمبتدع ديانة ، مستمد من دلائل : الكتاب ، والسنة ، والإجماع وإلى بيان بعض منها :

أولاً - الكتاب العزيز :

ففيه آيات كثيرة في التأكيد على (الموالاتة في الله ، والمعادة فيه ، في سور : البقرة ، وآل عمران ، والأنعام ، والنساء ، و المجادلة وغيرها (١٢) .

ونقتصر هنا على ذكر أربع آيات من سور : الأنعام ، والنساء ، وهود ، والمجادلة ، والتي نص العلماء في تفسيرها على عقوبة المبتدع بالهجر ودلالاتها عليه ، وذلك باعتبار عموم اللفظ في كل آية ، وهذا هو المعتبر دون خصوص السبب ، ففي عموم كل آية منها دليل على الهجر والإعراض والاجتناب ، والمجالسة ، لكل مبتدع محدث في الدين حتى يفيء ، وعلى هذا تدل كلمة من تراه من المفسرين وغيرهم .

وهذه من أجل الفوائد في تفسير النصوص من آية أو حديث ، إذ يشمل تفسيرها الأمرين : الأول : ما هي نص فيه .

الثاني : ما يؤخذ منه حكم له وإن لم يكن نصا فيه باعتبار العموم والاستنباط من كتاب الله تعالى وأسرار تنزيله ، وكما في حديث الصحيفة المشهور . " أو فهماً يؤتبه الله رجلاً في كتابه" .

وهذه قاعدة شريفة فلا يفوتك الوقوف عليها ، وبخاصة لدى الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى ، وعنه بل بأبسط في كتاب (حد الإسلام وحقبة الإيمان) (١٣) .

وإلى بيانها .

١ -- ومنها قول الله تعالى في سورة الأنعام: ٦٨ (١٤) :
((وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ))

وفي هذه الآية دلالة على تحريم مجالسة أهل البدع والأهواء وأهل الكبائر والمعاصي. قال القرطبي رحمه الله تعالى: (في هذه الآية رد من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج، وأتباعهم لهم أن يخالطوا الفاسقين، ويصوبوا آرائهم تقية، وذكر الفردي عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنه أنه قال: لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله.

قال ابن العربي: وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل. قال ابن خويز منداد: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر مؤمنا كان أو كافرا، قال: وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو، وكنائسهم، والبيع ومجالسة الكفار وأهل البدع، وألا تعتقد مودتهم، ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم، ثم ذكر بعض الآثار عن السلف في هجر المبتدعة) ١هـ (١٥)(١٦). وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: (وفي هذه الآية موعظة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون. كلام الله، ويتلاعبون بكتاب وسنة رسوله، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير، وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون، به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر. وقد شاهدنا من هذه المجالسة الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه، وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها: علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح، مكان فينقذ في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدة عمره، ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر) ١هـ (١٧) - يتبع -

الهوامش:

- ١- الترغيب والترهيب ٣/٤٥٤،-٤٦٢،
- ٢- معالم السنن ٤/١١٢،
- ٣- وانظر: كتاب التعزيز، لعبد العزيز عامر، ص (٢٣٧)، وما بعدها.
- ٤- أنظر: فتح الباري ٨/١٢٣-١٢٤، ١٠/٤٩٧، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة لللالكائي ١/١١٤-١٥٠، ومبحث الآثار من هذه الرسالة.
- ٥- تنبيه مهم: هذه القاعة مشتركة لفظاً بين أهل السنة والجماعة وحقيقتها لديهم كما علمت، وبين الخوارج (لا ولاء إلا ببراء) أي لا موالاتة لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلا بالبراءة من أميري المؤمنين عثمان وعلي رضي الله عنهما. وبين الشيعة (لا ولاء إلا ببراء) أي لا ولاء لعلي وآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة رضي الله عنهم. ومعتقد أهل السنة والجماعة موالاتة جميع الصحابة رضي الله عنهم بتزكية الله لهم.
- تنبيه آخر: ولدى أهل السنة والجماعة كذلك (بدعية الولاء والبراء) من وجه: بمعنى أن يتبرأ من قوم هم على دين الإسلام والسنة، ويتولى من ليسوا كذلك، كما ذكره ابن بطه رحمه الله تعالى في: الشرح والإبانة، ص(٣٤١) رقم/٤٧٢،
- ٦- فتح الباري ١/٦٠-٦٢

- ٧- السلسلة الصحيحة / ٣٨٠
- ٨- فتح الباري ١/ ٦٢،
- ٩- الدرر السنية ٤/ ٢٠٨ - ٢١٦ ، تحفة الإخوان/ ٤- ٣١.
- ١٠- كما في : العقيدة للصابوني م سنة ٤٤٩ هـ رحمه الله تعالى/ ١٠٠ - ١٠٢ ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة لللالكائي ١/ ١١٤-١٥٠ ، وفي كتاب السنة للخلال : باب مجانية من قال القرآن مخلوق كما في الفتاوى ٢٨ / ٢١٠ - ٢١٣ ، والاعتقاد للبيهقي : باب النهي عن مجالسة أهل البدع ومكالمتهم / ١٤٥ ، والشرح والإبانة لابن بطة/ ١٥٤ ، ٢٧٥-٢٧٦ ، ٢٨٢ ،
- ١١- رسالته في العقيدة / ١٠٠ ، ١١٢ ،
- ١٢- انظر في جمع هذه الآيات مع وجوه الاستدلال بها في : الدرر السنية ٤/ ٥٧ - ٦٨ ذكر عشرين آية ، وتحفة الإخوان/ ٤ - ١٥ ذكر ست عشرة آية.
- ١٣ - الاعتصام / ١- ٦٢ ، ٦٧ ، ١٠٢-١٠٣ ، ٢٥٨/٢.
- وكتاب حد الإسلام للشيخ عبد المجيد الشاذلي/ ٣٨٨ - ٣٨٩ . وتفسير ابن كثير لقوله تعالى : ((قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)) الآية/ ١٠٣-١٠٤ وفي الفوز الكبير للدهلوي/ ٢٦ قال : (وبالجملة إذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقضوا بل الواقع انه ما من بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو مجرد اليوم بطريق الأنموذج بحكم الحديث : لتتبعن سنن من قبلكم).
- ١٤ - انظر : تفسير القرطبي ٧ / ١٢-١٣ . فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٢٢،
- ١٥ - تفسير القرطبي ٧ / ١٢ ، - ١٣ ،
- ١٦ - ستأتي في توظيف الصحابة لهذه السنة.
- ١٧ - فتح القدير ٢ / ١٢٢.

نقد

قراءة في فكر مالك في نبي

-٣-

محمد العبد

يرى مالك بن نبي أن من عوائق النهضة الحديثة الأمراض الاجتماعية والفكرية التي أصابت المسلمين نتيجة عهود الضعف والانحطاط ، وقد ذكرنا في نهاية المقال السابق أمثلة على ذلك ، ونتابع في هذا العدد بإذن الله آراء هذا المفكر في تشخيص الداء.

طغيان عالم الأشخاص :

عندما يتعلق الناس بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالمبدأ أو الفكرة فإنهم يرون أن إنفاذهم من الحالة التي هم عليها ب (البطل القادم) الذي ينتظرونه دون أن يقوموا بجهد يذكر. فالخلاص لا يتم بتجمع أناس على مبدأ يدافعون عنه ، ويتفانون فيه ، ويتقنون فن التعاون ؛ بل بالرجل الذي يجمعهم ويوحدهم ، وقد يطول انتظارهم وهم يمنون أنفسهم بالأمني ، وهكذا نسمع الخطباء لا يفتأون يذكرون (أين صلاح الدين) أو (قم يا صلاح الدين) ، فهم يريدون (صلاحاً) آخر ينقذهم ، ولا شك

إن (إجلال رجل القدر) مثل إجلال (الشيء الوحيد) مرض منتشر في أرجاء العالم الإسلامي ، وهو أحياناً السبب في إفلاس فادح لسياسات عديدة (١) وقد لا يكون هناك رجل القدر ولكن (رجل النحس) الذي نلقى عليه كل ضعفنا وفشلنا ، وبدلاً من أن نتدبر الأحداث ، ونبحث بطريقة أعمق عن الأسباب الحقيقية لفشلنا يمكن بكل سهولة أن نلصق التهمة بـ (رجل النحس). فعندما وقع انفصال سورية عن مصر عام ١٩٦١ قالوا : إن السبب هو رجل النحس (حيدر الكزبري) ولكن من الواضح أن الانقلاب كان لابد واقعا في وجود الكزبري أو في غيابه ، فجيم عوامل التشجيع على هذا الانفصال كانت متوفرة ، سواء من الأخطاء التي وقعت أو من عدم توفر فكرة مضادة للانفصال (٢). وقد تتجسد الأفكار بأشخاص ليسوا أهلاً لحملها فتحسب كل أخطائهم وانحرافاتهم على المجتمع الإسلامي أو على الإسلام ، وقد تتجسد بأشخاص يحملونها ولكن إذا ماتوا انتهت هذه الأفكار بموتهم ، أو فتر حماس الأتباع ، لقد مارس العالم الإسلامي ، دور البطولة في كفاحه ضد الاستعمار عندما يزغ في سمائه أبطال مثل عبد الكريم الخطابي ، وعمر المختار ، وعز الدين القسام... ولكن مشكلة المسلمين الأساسية لم تحل " لأن من طبيعة هذا الدور أنه لا يلتفت إلى حل المشاكل التي مهدت للاستعمار وتغلغله داخل البلاد " (٣) ولا يعني هذا إنكار دور هؤلاء الأبطال ، أو التقليل من شأنهم ، ولكنها العودة إلى الأصل وهو إنشاء تيار إسلامي قوي يتعلق بالمبدأ ويقوم بالجهد الجماعي ، ولذلك جاءت الآية القرآنية حاسمة في هذا الموضوع ، إن الواجب على المسلمين قيادة الدعوة وحمل الرسالة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم : ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)) [آل عمران: ١١٤٤].

يركز مالك بن نبي في أكثر كتبه على هذا المرض ، ويطالب المسلمين ، والشباب بشكل خاص ، بأن يتحول للارتباط بالمنهج لا بشخص معين ، لأن هذا الشخص مثل الرأس الذي يقود عربات القطار ، فإذا انحرف انحرف القطار كله ، وهذا الذي يثيره الأستاذ مالك صحيح بشكل عام ولكنه بالغ في تهميش دور الأشخاص مع أنهم هم الذين يحملون الفكرة ويجسدونها عملياً حتى يقتنع الناس بها ، وكلامه فيه شيء من التجريد والمثالية ، وهذا الإسلام ، وهو حق صريح ، إذا لم يحمله أشخاص يتمثلونه ويثرونه بين الناس فلا ينتشر إلا قليلاً.

طغيان الأفكار :

إذا كان هناك طغيان في عالم الأشياء وعالم الأشخاص ، فقد يصل الأمر إلى طغيان في عالم الأفكار ، فعندما يكون المجتمع في حالة مضطربة ، فلا هر بداية دخول الحضارة ، ولا هو خارج تماماً عن الحضارة ، في هذه الحالة قد يفقد المتعلم تكيفه مع الوسط الاجتماعي ، أو لا يستطيع أن يقوم بعمل مثمر يرضي ضميره ، عندئذ يلجأ إلى البحث في الأفكار المجردة النظرية التي لا تأخذ طريقها إلى التطبيق ، وبدل أن يتكلم عن معاناة الناس ومشاكلهم والتخطيط لمجتمع أفضل فهو يتكلم عن الماضي الذي ليس له صلة بالحاضر ، أو يفتعل معارك وهمية ليكون هو أحد أبطالها ، وتدفع المطابع كل يوم عشرات الكتب التي لا تمس الواقع المعاش بل هي هروب مفتعل من الواقع ، وقد تغطي الأمور النظرية على مدرس في الجامعة فيتحدث عن تركيب الأدوية وعن النباتات ويجهد نفسه في وصف بعض النباتات بدلاً من أن يمد يده من النافذة ويقطف واحدة منها ليقدمها إلى الطلبة حية نابضة ، ولكنه مع الأسف يبحث عنها في الكتاب ، فهو كل شيء بالنسبة له (٤).

وتد بملغ الخلل في عالم الأفكار ، إلى درجة أن يعرقل المبادرات والجهود ، وهو ما يسميه مالك بن نبي (الأفكار الميتة) (فالبيدييات في التاريخ ، كثيراً ما قامت بدور سلبي كعوامل تعطيل مثل بديهية :

الأرض مسطحة ، فإنها حالت دون اكتشاف أمريكا قروناً طويلة(٥) ، والبوصلة التي ساعدت كولومبس على اكتشاف أمريكا هي من اختراع المسلمين ! ، وقد كان من حكم الطب القديم أن الحرارة مثلاً دواؤها الرطوبة ولا بأس بهذه الحكمة ما لم تكن قيداً يقيد الفكر فلو استسلم الطب لحكمة كهذه مع صلاحيتها في بعض الظروف لما وجد (باستور) طريقاً لاكتشاف العلاج النافع لداء (الكلب) مثلاً(٦).

و لا شك أن هناك كثيراً من الأفكار خذلت أصحابها لأنها لا تحمل أصولاً صحيحة ، فكم أهدر من الوقت في جدل ومناقشات ، وكم سودت من صفحات مبنية على أحاديث موضوعة أو ضعيفة ، وكم عاش المسلمون متأثرين بأفكار الصوفية التي تدعو إلى البطالة والزهد غير المشروع حيث كان مثلهم الأعلى (المجاذيب).

الحق والواجب :

يميل الفرد بطبيعته إلى نيل حقه ، وقد ينفر من القيام بواجبه ، والأمة التي تصاب بمرض (السهولة) وعاشت قروناً من التخلف ، فإن من أهون الأشياء عليها التي لا تكلفها كثيراً هو المطالبة بالحقوق ، ونسيان الواجبات ، فهي تشبه الكائن (الأميبي) المتبطل ، حتى إذا رأى فريسة هينة ابرز إليها ما يشبه اليد ليقنصها ، ثم يهضمها في هدوء وبقي هذا الكائن يأكل من حاجاته المتواضعة حتى إذا جاء الاستعمار لم يدع له شيئاً فتحرك ضميره (أي معدته) فمد يده إلى فريسة وهمية أطلق عليها لفظة (الحق) (٧).

وكان هذا منشأ سياسة الدجل التي مارسها من يتقن هذه الأدوار ، وللمطالبة بالحقوق إغراء شديد فهي كالسم لا يجذب الذباب ويجتذب الانتفاعيين ، بينما كلمة الواجب لا تجتذب غير (النافعين) (٨) ، وعندما يستغلها الزعماء المهرجون لتجميع الغوغاء من الشعب ويلعبون بمفتاح (الحقوق) فيسيكون من الصعب أن يستخدموا مفتاح الواجبات وتتحول الأمة إلى استجداء حقوقها من الأمم المتحدة ومجلس الأمن والرأي العام العالمي ولكن ما من مجيب ، لأن هذه الأصنام ما نصبت إلا لتخدير الشعوب وتعليمها لغة الاستجداء.

وعلى الصعيد السياسي فإن كلمة الواجب توحد وتؤلف بينما كلمة الحق تفرق وتمزق ، وهكذا ما خرجت دولة من دول العالم الثالث من ربة الاستعمار إلا وتناحرت أحزابها على المطالبة بحق اقتسام الغنيمة ، بدلاً من أن يتكلموا عن الواجبات ، وهذا ما حصل في الجزائر ، واليمن الجنوبي ، ونيجريا ، والكونغو ... (٩).

ومن الأمثلة التي ترونها ذاكرة الأستاذ مالك بن نبي حول هذا الموضوع : "شاهدت خلال بعض المواقف السياسية في الجزائر جيلاً من السياسيين يقفون من قضية مهمة بالنسبة للشعب الجزائري وهي قضية الأمية ، يقفون منها موقفاً جديراً بالملاحظة ، فقد كتب هؤلاء السياسيون المقالات الطويلة لشرح هذا المرض الاجتماعي الخطير ، موضحين نتائجه المنكرة في حياة الفرد ، وهم في هذا كله يهاجمون الاستعمار في خطب ملتهبة بالحماس متقدة بالوطنية ، وهكذا يستمرون في خطبهم ومقالاتهم حتى تنقطع أنفاسهم عن الكلام ، وتمر الأعوام تلو الأعوام والمشكلة لا تجد في مجهوداتهم حلها ، ذلك أنهم لم يدخلوا إلى المشكلة من طريق حلها ، لقد أصدرت الحكومة الفرنسية عام ١٩٤٠ قوانين استثنائية قاسية حول تنظيم التعليم في مختلف مراحلها بالنسبة للطائفة اليهودية (مسائرة لألمانية الهتلرية) وشعرت الطائفة بأن أطفالها قد أصبحوا مهددين بالأمية غير أنها لم تكتب مقالة واحدة تستنكر هذا الإجراء ، ولم يلق واحد منها محاضرة عن هذا الأمر ، وإنما اجتمعت النخبة فيها

ودرست المشكلة لكي تحدد موقفها منها ، وحددت موقفها بأن يتطوع كل ذي علم بقدر ما عنده من العلم ، وهكذا أصبح كل بيت من بيوت المتعلمين مدرسة في ساعات معينة ، ولا نستطيع أن نبرر هذا بتفوق اليهود المادي أو العلمي لأننا لا نستطيع أن نفترض أن الدكتور أو الصيدلي أو المحامي اليهودي أغزر علماء من زميله الجزائري ، فالاختلاف هو في الموقف الاجتماعي إزاء مشكلة معينة" (١٠).

مثال آخر يتذكره ابن نبي وهو يحلل هذه المشكلة : " وبدلاً من أن تكون البلاد (الجزائر) ورشة للعمل المثمر والقيام بالواجبات فإنها أصبحت منذ سنة ١٩٣٦ ، سوقاً للانتخابات ، وصارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقى منه الخطب الانتخابية ، وهكذا تحول الشعب إلى جماعة من المستمعين يصفقون لكل خطيب ، أو قطيع انتخابي يقاد إلى صناديق الاقتراع ، وفي هذا اختلاس أي اختلاس للعقول التي أشرفت على قطف ثمار نهضتها " (١١).

وهذا المرض لا يزال مسيطراً على العقول ، فكثيراً ما نسمع في قرية من القرى أو حي من الأحياء المطالبة بحقهم في فتح طريق أو تنظيف شارع أو فتح مدرسة ، وكان بوسعهم أن يتعاونوا لإنجاز مثل هذا العمل. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الناس القيام بالواجب عندما أعطى الذي جاء يطلب صدقة حبلاً وفأساً وأمره أن يحتطب ولا يتكفأ أيدي الناس (١٢).

العقلية الذرية :

يقصد بهذا المصطلح أن بعض الناس "ينظر إلى الأحداث والوقائع مجزأة منفصلة فردية ، كأنما في مجموعها لا تكون حلقة من التاريخ وإنما كوماً من الأحداث" (١٣).

وهذه العقلية موجودة في أوساط المسلمين بسبب بعدهم عن (الفعل الحضاري) وبسبب التكوين الاجتماعي الذي ورثناه ، ومن مظاهرها "أن جهودنا في كل مجال لا تتسم بالجهد المتواصل ولكن بالمحاولات المتتابعة ، فما أن يبدأ نشاط ما حتى يذهب فجأة كأنه وثبة برغوث أو كأنه مركب على صورة الخط المنقط الذي يمر من نقطة إلى أخرى دون أن يصور شيئاً ، ولنعتر على سبيل المثال كم منذ نهاية الحرب ظهرت مجلة في بلادنا ثم اختفت بنفس السرعة" (١٤).

ومن مظاهر هذه العقلية "العجز عن أن نعقد صلات بين الأفكار وعن أن نعطي لمناقشة مشكلة ما حركة متصلة مطردة لا يحجل فيها الفكر من نقطة إلى نقطة ، بل يطرد دائماً من مقدمة إلى نتيجة" (١٥) "وإذا كان من الممكن تجزئة المشكلة لتجزئة حلولها (فكل الطرق تؤدي إلى روما) ولكن الطريق عبر المنهج هو أطول الطرق بلا شك ، إن طريق الحضارة لا يمكن خطه بإقامة مدرسة هنا ومصنع هناك وسدً هنالك ، أو بوضع سلة معدنية في جانب هذا الشارع حيث لا أحد يفكر في إلقاء المهملات" (١٦).

ولو أننا تعودنا الربط والتعميم وتتبع الجزئيات من الكليات لما استغربنا تشابه المشكلات الخارجية التي يواجهها العالم الإسلامي ، فالعالم الذي نواجهه (الاستعمار) لا تأتي فيه الأشياء عفواً وإنما كنتائج لخطط محكمة ، فعندما تفشل بعثة علمية في بلاد الغرب أو أحد أفراد هذه البعثة تفاجأ : كيف حصل هذا ؟ (١٧).

ولو تتبعنا بعض الظواهر المحيرة في العالم الإسلامي لوجدنا أن المحرك لها واحد ، ولكن عقلية تجزئ الأشياء تجعلنا لا نشعر بالقاسم المشترك فيما بينها.

إن هذا النزوع نحو تجزئة مشكلة الحياة إلى ذرة ذرة ، وهذا العجز عن التعميم ليس من خواص الفكر المسلم كما يحاول أن يؤكد المستشرق الإنكليزي (جب) "بل هو طراز للعقل الإنساني بعامه

عندما يقصر عن بلوغ درجة معينة من النضج ، وإن التراث الثقافي الخطير الذي خلفته الحضارة الإسلامية يظل شاهداً على ما كان يتصف به الفكر الإسلامي في عصوره الذهبية بالإحساس (بالقانون) وهو يستلزم القدرة على التركيب ، وأصول الفقه الإسلامي أكبر دليل على ذلك" (١٨).

التعاليم والحرفية في الثقافة :

عانت مجتمعاتنا في عصور الضعف مشكلة (الأمية) والجهل ولكنها عندما حاولت النهوض أصيبت بمرض مستعص وهو (التعاليم) أو الحرفية في التعلم وحمل اللافتات العلمية " وإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوي المريض الأول ، فإن مداواتنا للمريض الثاني لا سبيل إليها لأن عقل هذا المريض لم يقتن العلم ليصيرَه ضميراً فعلاً ، بل ليَجعله آلة للعيش ، وسلماً يصعد به إلى (الوظيفة) ، وهكذا يصبح العلم عملة زائفة غير قابلة للصرف ، وإن هذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل المطلق ، فالجاهل هنا لا يقوّم الأشياء بمعانيها ، ولا يفهم الكلمات بمراميها ، وإنما بحسب حروفها ، وكلمة (لا) تساوي عنده (نعم) لو احتمل أن حروف الكلمتين متساوية.

وكلام هذا المتعالم ليس (كتهتهة) الصبي فيها براءة وإنما (تهتهة) يتمثل فيها شيخوخة وداء عضال، فهو الصبي المزمّن" (١٩).

لقد تحولت اللافتات العلمية زينة تنصدر المجالس، وألقاباً للتفاخر ذلك أن نزعة المديح والألقاب قد أسرتنا منذ عهود الانحطاط ، فألقاب مؤلف أي كتاب لا بد أن تملأ نصف الصفحة الأولى على الأقل ، فهو العالم العلامة والخبير الفهامة...

ونظرة إلى الصحف الآن التي تعيش على المدح تكفي لنعلم كم نعيش تحت أسر الكلمات الطنانة التي ليس لها معنى ، وإنما هو الغرام الأحمق بمجرد الكلام ، "وفي هذا ضرر كبير على كيان الأمة لأنها تفقد حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح" (٢٠) ، ويصبح المثل الأعلى من هو أقدر على الكلام ولو لم يكن له أي دور اجتماعي "وقضية الجهل لا تعالج بمجرد وضع البرامج التعليمية ، بل يجب أن يكون أولاً عملية تصفية نفسية ، وبكلمة واحدة أن يكون التعليم بناء الشخصية الجديدة" (٢١).

هذه نماذج لبعض الأمراض التي تعيق النهضة كما يراها مالك بن نبي، ولم نتعهد الاستقصاء ، وقد يقال هنا : كيف لا يذكر أصل الداء وهو بعد الناس عن فهم العقيدة الإسلامية الصافية ، عن فهم التوحيد كما جاءت به الرسل عليهم السلام ، وللجواب على هذا نقول :

إن مالك بن نبي كمفكر يهتم بشؤون النهضة والإصلاح ويشخص الأمراض الاجتماعية التي أصابت العالم الإسلامي والتي تعيقه عن النهوض ، فقد يكون المسلم صاحب فهم سليم ولكن فيه هذه الأمراض ، فهو يعالج هنا كالطبيب المتخصص.

٢- كان مالك بفطرته يعلم أن الرجوع إلى منهج خير القرون هو الصواب ، ولذلك انتقد منهج المدرسة الإصلاحية في إحيائها (لعلم الكلام) يقول منتقداً الشيخ محمد عبده الذي "ظن كما ظن فيما بعد الدكتور محمد إقبال أن من الضروري إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة حتى يمكن تغيير النفس ، بيد أن كلمة (علم الكلام) ستصبح قدراً مسلطاً على حركة الإصلاح الذي حاد بها جزئياً عن الطريق" (٢٢).

"وعلم الكلام يمد الجدال ويشوه المشكلة الإسلامية ، ويفسد طبيعتها ، حيث يغير المبدأ السلفي في عقول المصلحين أنفسهم" (٢٣).

٣- إن مالك كغيره من المفكرين وكثير من المسلمين يظنون أن العقيدة هي الإيمان بالله ولا يفرقون بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، فقد يؤمن الإنسان بوجود الله ، ولكنه يعرض عن عبادته

والخضوع لشرعه ، والرسل دعت الأمم لعبادة الله وحده ، يوضح تصوره هذا قوله : " والمسلم - حتى ما بعد الموحدين - لم يتخل مطلقاً عن عقيدته ، فلقد كان مؤمناً ، ولكن عقيدته تجردت عن فاعليتها ، وإن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي أن نشعره بوجوده ونملاً به نفسه " (٢٤). إن ضعفه في العلوم الشرعية جعله لا يتبين أهمية فهم التوحيد فهما صحيحاً ، وأن الخلط في هذا الموضوع هو أس البلاء.

الهوامش :

- ١- مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار /، ١٠٤،
- ٢- المصدر السابق /، ١٠٤،
- ٣- شروط النهضة /، ٢٣،
- ٤- مشكلة الأفكار /، ١٠٦،
- ٥- تأملات /، ١٨٩،
- ٦- المصدر السابق /، ١٩١،
- ٧- وجهة العالم الإسلامي /، ١٣١،
- ٨- بين الرشاد والتهيه /، ١٢٩،
- ٩- بين الرشاد والتهيه /، ٢٩،
- ١٠- تأملات /، ١٤٠،
- ١١- شروط النهضة /، ٤٨،
- ١٢- معنى لحديث متفق عليه.
- ١٣- الصراع الفكري /، ٥٣،
- ١٤- في مهب المعركة /، ١٥٤، ١٩٤،
- ١٥- فكرة الأفرو آسيوية /، ٧٩،
- ١٦- المصدر السابق /، ٨٠،
- ١٧- الصراع الفكري /، ٣٤،
- ١٨- وجهة العالم الإسلامي /، ١٥،
- ١٩- شروط النهضة /، ١٢٧،
- ٢٠- وجهة العالم الإسلامي /، ٥٢،
- ٢١- تأملات /، ١٩١،
- ٢٢- وجه العالم الإسلامي /، ٤٧،
- ٢٣- المصدر السابق /، ٤٩،
- ٢٤- المصدر السابق /، ٤٨.

تعقيب على مقال

مدى تدخل الدولة في فرض الضرائب وتوظيف الأموال
للشيخ عثمان جمعة ضميرية

عبد العزيز بن حمد المحمد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد :

فقد كتب الشيخ الفاضل : عثمان جمعة ضميرية مقالا في مجلة (البيان) (العدد الثالث عشر) بعنوان: "مدى تدخل الدولة في فرض الضرائب وتوظيف الأموال"، وخلص إلى مشروعية فرض الضرائب بشروط ذكر بعضها. وقد كان لي بعض الملاحظات على ذلك المقال فأحببت أن أذكر شيئا منها ، ولست متعرضا لتحريير القول في المسألة ، فأدع ذلك لعلمائنا حفظهم الله. أولاً : الكلام الذي نقله الكاتب حفظه الله عن الغزالي والجويني والشاطبي مرتبط كله بالجهاد والاستعداد له وحفظ الأمن ، وأين ذلك من الضرائب المتنوعة التي تفرض اليوم ، ولا تستخدم في الضروريات فقط ، بل تتعدى ذلك إلى الحاجيات والتحسينات ، ومجالات الفساد المتنوعة. وإنما يصح الاستشهاد بكلام العلماء المذكورين - رحمهم الله - على الضرائب التي يحتاج إليها في القيام بالواجبات فقط.

ثانياً : قال الشيخ - حفظه الله - ص ٤٧ : "وممن (في الأصل: مم) عرض لهذه المسألة ، وأيدها بالنصوص الشرعية والحجج القوية، الإمام ابن حزم في كتابه العظيم (المحلى)..". والواقع أن كلام ابن حزم ليس عن الضرائب وحكمها ، وإنما هو عن إلزام الأغنياء بسد حاجات الفقراء ، إذا لم تقم الزكوات بهم. وأما موقفه من الضرائب ، فقد ذكره في كتابه "مراتب الإجماع" ، فقال ، ص ١٢١ :

"واتفقوا أن المراد الموضوع للمغارم على الطرق وعند أبواب المدن وما يؤخذ في الأسواق من المكوس على السلع المجلوبة من المارة والتجار ظلم عظيم وحرام وفسق ، حاشا ما أخذ على حكم الزكاة وباسمها من المسلمين من حول إلى حول مما يتجرون به ، وحاشا ما يؤخذ من أهل الحرب وأهل الذمة مما يتجرون به من عشر أو نصف عشر ، فإنهم اختلفوا في كل ذلك ، فمن موجب أخذ كل ذلك ومن مانع من أخذ شيء منه إلا ما كان في عهد صلح أهل الذمة مذكورا مشترطا عليهم فقط". وهذا الذي اعتمده شيخ الإسلام كما سيأتي.

ثالثاً : قال الشيخ - حفظه الله - ص ٤٤ : "عرض فقهاء الشريعة الإسلامية توظيف الأموال على الأغنياء ، عند الحاجة ، وقرروا جواز ذلك...".

وقد يفهم من الإطلاق أن هذا قول العلماء كافة ، وليس الأمر كذلك ! وأول من عرف عنه القول بمشروعية توظيف الوظائف أبو المعالي الجويني ، وهو يقول عن نفسه في "غياث الأمم" بتحقيق الديب، ص ٢٦٦ :

"لست (أحاذر) إثبات حكم لم يدونه الفقهاء ، ولم يتعرض له العلماء ؛ فإن معظم مضمون هذا الكتاب لا يلغي مدونا في كتاب ، ولا مضمنا لباب... فليكن الكلام في الأموال وقد صفر بيت المال واقعة لا يعهد فيها للماضين مذهباً ، ولا يحصل لهم مطلباً ، ولنجر فيه على ما جرى عليه الأولون إذ دفعوا إلى وقائع لم يكونوا يألفوها ، ولم ينقل لهم مذاهب ، ولم يعرفوها". وتبع الجويني على كلامه تلميذه الغزالي، ونقل الشاطبي كلام الأخير موافقا له كما وافقهم على ذلك علماء آخرون. وقد خالف في ذلك غيرهم مثل ابن حزم كما مرّ معنا، وابن تيمية كما سيأتي.

ومما يوضح الخلاف في المسألة من قديم ، ما ذكره التنبكتي في كتابه المطبوع بهامش "الديباج المذهب" في ترجمة الشاطبي صاحب "الاعتصام" ، إذ قال ص ٤٩ :

"وكان صاحب الترجمة ممن يرى جواز ضرب الخراج على الناس عند ضعفهم وحاجتهم، لضعف بيت المال عن القيام بمصالح الناس ، كما وقع للشيخ المالقي في كتاب الورع قال : توظيف الخراج

على المسلمين من المصالح المرسله ولاشك عندنا في جوازه وظهور مصلحته في بلاد الأندلس في زماننا الآن لكثرة الحاجة لما يأخذه العدو من المسلمين ، سوى ما تحتاج إليه الناس، وضعف بيت المال الآن عنه ، فهذا يقطع بجوازه الآن في الأندلس. وإنما النظر في القدر المحتاج إليه من ذلك ، وذلك موكل إلى الإمام... وكان خراج بناء السور في بعض مواضع الأندلس في زمانه موظفاً على أهل الموضع ، فسئل عنه إمام الوقت في الفتيا بالأندلس الأستاذ الشهير أبو سعيد بن لب فأفتى أنه لا يجوز ولا يسوغ ، وأفتى صاحب الترجمة بسوغه، مستنداً فيه إلى المصلحة المرسله ، معتمداً في ذلك إلى قيام المصلحة التي إن لم يقم بها الناس فيعطونها من عندهم ضاعت... ووقع لابن الفراء في ذلك مع سلطان وقته وفقهائه كلام مشهور...".

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقد قال (مختصر الفتاوى المصرية، ص ٤٥٥):
 "... في أوائل الدولة السلجوقية أفتى طائفة من الحنفية والشافعية - إذا لم يكن في أموال بيت المال كفاية لرزق الجند الذين يحتاج إليهم في الجهاد - أن يوضع على المعاملات ، وأنكر ذلك غير هؤلاء ، وحكى أبو محمد بن حزم في كتاب الإجماع : إجماع العلماء على تحريم ذلك، وقد كان نور الدين محمود الشهيد بن زكي قد أبطل جميع الوظائف المحدثه في الشام والجزيرة ومصر والحجاز، وكان أعرف الناس بالجهاد ، وهو الذي أقام الإسلام بعد استيلاء الإفرنج والقرامطة على أكثر بلاد ه".

وقال أيضاً في "الأموال المشتركة" (١): "... وأما من بعد الخلفاء الراشدين فلهم في تفاصيل قبض الأموال وصرفها طرق متنوعة: منها ما هو حق منصوص عليه موافق للكتاب والسنة، ومنها ما هو اجتهاد يسوغ بين العلماء إذا كان الإمام من أهل الاجتهاد وله علم ، وقد يسقط الوجوب بأعذار وبياح المحظور بأسباب ، وليس هذا موضع تفصيل ذلك ، ومنها ما هو اجتهاد ولكن صدوره لعدوان من المجتهد أو تقصير منه شاب الرأي فيه الهوى ، فاجتمعت فيه حسنة وسيئة ، وهذا النوع كثير في الملوك وغيرهم جداً ، ومنه ما هو معصية محضة لا شبهة فيه بترك واجب أو فعل محرم... ولم أعلم أن في الدولة الأموية و صدر الدولة العباسية وظفوا على الناس وظائف تؤخذ منهم غير الوظائف التي هي مشروعة في الأصل... وكانت سير الملوك تختلف... ومنهم من يقصد اتباع الشريعة وإسقاط ما يخالفها ، كما فعل نور الدين لما أسقط الكلف السلطانية المخالفة للشريعة التي كانت تؤخذ بالشام ومصر والجزيرة ، وكانت أموالاً عظيمة جداً ، وزاد الله البركات ، وفتح البلاد ، ووقع الأعداء بسبب ذلك ، لما عدل وأحسن.

ثم هذه الوظائف السلطانية التي ليس لها أصل في كتاب ولا سنة ، ولا ذكرها أحد من أهل العلم المصنفين في الشريعة ، ولا لها أصل في كتب الفقه من الحديث والرأي ، هي حرام عند المسلمين ، حتى عند من يأخذها ، ويعرف حكم الله ، وقد ذكر ابن حزم إجماع المسلمين على ذلك. ومع هذا ، فبعض من وضع بعضها وضعه بتأويل واجتهاد علمي ديني ، واتفق على ذلك أهل الفتوى والرأي من بعض علماء ذلك الوقت ووزرائه... في نصف المائة الخامسة حدثت أمور منها بناء المدارس والخوانق ووقف الوقوف عليها... وصنف أبو المعالي الجويني كتاباً للنظام ، سماه غياث الأمم... وذكر فيه قاعدة في وضع الوظائف السلطانية عند الحاجة إليها للجهاد ، فإن الجهاد بالنفوس والأموال واجب ، بل هو من أعظم واجبات الدين ، ولا يمكن حصول الجهاد إلا بالأموال التي تقام بها الجيوش ، إذ أكثر الناس لو تركوا باختيارهم لما جاهدوا لا بأنفسهم ولا بأموالهم ، وإن ترك جمع الأموال وتحصيلها حتى يحدث فتق عظيم من عدو داخلي أو خارجي تفريط وتضييع ، فالرأي أن

تجمع الأموال ، وترصد للحاجة ، وطريق ذلك أن توظف وظائف راتبية لا يحصل بها ضرر ، ويحصل بها المصلحة المطلوبة من إقامة الجهاد.

والوظائف الراتبية لا بد أن تكون على الأمور العادية ، فتارة وظفوها على المعاضات والأموال ، مثل أن يضعوا على البائع والمشتري في الدواب والحبوب والثمار وسائر الأطعمة والثياب مقداراً ، إما على مقدار البيع وإما على مقدار الثمن ، ويضعوا على الجعالات والإجازات ، ويضعوا على العقارات من جنس الخراج الشرعي ، فكان ما وضعوه تارة يشبه الزكاة المفروضة المشروعة ، وتارة يشبه الخراج الشرعي ، وتارة يشبه ما يؤخذ من تجار أهل الذمة والحرب ، وتارة يشبه المكس.

ومنهم من يعتدي فيضع على أثمان الخمر ومهور البغايا ونحو ذلك ، مما أصله محرم بإجماع المسلمين ، ومنهم من يضع على أجور المغاني من الرجال والنساء...

حقيقة الأمر في ذلك أن هذا من القسم الثالث والرابع ، فإن هذا إذا صدر باجتهاد فهو في الأصل مشوب بهوى ومقرون بتقصير أو عدوان ، وإن التقصير أو العدوان صادر أيضاً من أكثر الرعية ، فإن كثيراً منهم أو أكثرهم لو تركوا لما أدوا الواجبات التي عليهم من الزكوات الواجبة والنفقات الواجبة والجهاد الواجب بالأنفس والأموال ، كما أنه صادر من كثير من الولاة أو أكثرهم ، بما يقبضونه من الأموال بغير حق ، ويصرفونه في غير مصرفه ، ويتركون أيضاً ما يجب من الأمر والنهي ، فجمع هذه الأموال وصرفها هي من مسائل الفتن...".

وقد أطلت النقل من "الأموال المشتركة" لأهمية الكلام ، ولعدم توفر المصدر عند كثير من القراء فيما أظن.

رابعاً : نقل الشيخ عثمان -حفظه الله -عن بعض العلماء تضعيف حديث فاطمة بنت قيس عن ابن ماجة ، ولفظه : "ليس في المال حق سوى الزكاة" ، وسكت عن حديثها عند الترمذي بلفظ. "إن في المال حقاً سوى الزكاة" ، مع أن الإسناد واحد ، وقد ضعفه العلماء للعلة ذاتها. وإنما اختلف العلماء في لفظ ابن ماجة : هل هو خطأ من بعض النساخ ، أم هو هكذا ؟ وانظر في ذلك : السنة للبيهقي (٨٤/٤) ، وتحفة الأشراف للمزي (٤٦٥/١٢) مع تعليق الحافظ في "النكت الظرف" "والأطراف بأوهام الأطراف" لولي الدين العراقي (ص ٢٣٠) ، وانظر كلامه أيضاً في "طرح التنزيب" (١١/٤) ، "والتلخيص الحبير" لابن حجر (٦٠/٢) ، وحاشية تفسير الطبري لأحمد شاکر (٣٤٤/٣) ، وحاشية سنن ابن ماجة بتحقيق الأعظمي (٣٢٨/١).

خامساً. نقل الشيخ عثمان -حفظه الله - (ص ٤٩) عن الشيخ حسن البنا -رحمه الله - قوله : " ومن لطائف عمر رضى الله عنه أنه كان يفرض الضرائب الثقيلة على العنب ، لأنها فاكهة الأغنياء في ذلك الوقت ، والضريبة التي لا تذكر على التمر ، لأنه طعام الفقراء ، فكان أول من لاحظ هذا المعنى في الحكام والأمراء ، رضى الله عنه".

وكيف يقبل مثل هذا في بحث علمي؟! فكان ينبغي معرفة سند الخبر وصحته قبل نقله.

هذا ما تيسر التعقيب عليه ، والموضوع بحاجة إلى بحث وتحريير ، والله المستعان.

وختاماً أسأل الله لي وللشيخ عثمان التوفيق والغفران ، وأن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

١- رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، أخرجها الدكتور ضيف الله بن يحيى الزهراني ، عام ١٤٠٦ هـ ، اعتماداً على مخطوطة في مكتبة الأوقاف ببغداد ، تحت رقم ١٣٧٥٤ ، لكثرة ما في طبعته من

تصحيفات ، فقد اعتمدت على صورة المخطوطة الملحق "بملاحظات على تحقيق كتاب الأموال المشتركة" لعبد العزيز ابن إبراهيم المرداس ، نشر دار ابن القيم بالدمام (الأوراق : ٤ - ٦).

فكر

أضواء على مشاريع دراسة التراث والعقد الحربي

محمد بن حامد الأحمرري

بدأ غير المسلمين دراسة التراث الإسلامي منذ ما يزيد عن قرن ونصف وامتدت هذه الدراسات لتغطي مساحة واسعة في العلوم الإسلامية لا تدع شيئاً إلا كان لها فيه رأي. تلد الدراسة انطلقت من المنهج النقدي للفكر اليوناني وللكنيسة الأوربية. وتعاملت مع العلوم الإسلامية بالأسلوب نفسه. ونحن لا نطالب هؤلاء الدارسين بما يفوق طاقتهم وانغلاق ثقافتهم ، والانغلاق المنهجي هو أبرز مقومات الفكر الغربي ، إذ القاعدة عندهم أن فكر العالم وتاريخه هو تاريخ أوربا موسعاً وذلك ما تشهد به كل المدارس النقدية والمذهبية هناك ، ولا يفسر هذا القول بأنهم جهلة بما عند غيرهم ، هذا ما لا نتحدث عنه هنا ، إنما المراد أن كل علم أو ثقافة خضعت للأسلوب النقدي الأوربي المعد مسبقاً للأجواء الوثنية وعصور الظلام كما يسمونها سنضرب هنا مثالين سريعين لهذه القضية حتى يمكننا أن نتجاوز إلى ما نريد :

١- المستشرق فون كريم عندما درس التاريخ الإسلامي كان يعيش فترة انتعاش القوميات الأوربية ، ويشاهد القومية الألمانية في بنائها ومجابتها للآخرين فتناول التاريخ الإسلامي ، وفسره تفسيراً قومياً يناسب المسار الذي يعانیه الكاتب ، وهكذا رأى أن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وقيام الدولة المسلمة إنما كان حاجة قومية عربية.

٢- المثال الآخر الكاتب الفرنسي الماركسي مكسيم رودنسون وهو كاتب معاصر لم يزل يخط ويخطط وتتبعه الإمعات في العالم الإسلامي يصدر كل يوم دراسة ماركسية للتاريخ الإسلامي ، وهكذا تجد روح اليسار الفرنسي أو الأمريكي في دراسته العلوم الإسلامية. دراسة أحمد أمين :

وعندما ندرس هذه الموجات في بلادنا الإسلامية تواجهنا دراسات حديثة للتراث الإسلامي كان أولها إنتاج أحمد أمين في مشروع واسع وجاد اهتم بالنواحي العقلية والثقافية لدى المسلمين، وهذا المشروع نشأ في أحضان المنهج الاستشراقي إذ اتفق ثلاثة من أساتذة كلية الآداب في القاهرة أحمد أمين وعبد الحميد العبادي وطه حسين على أن يقوم الأول بدراسة الحياة العقلية ، وأن يدرس العبادي الحياة السياسية ، وطه حسين الحياة الأدبية ومشروع أحمد أمين جزء من كتاب كبير يضم هذه الأقسام الثلاثة وقد قرأ الثلاثة مشروع هذا العمل وأقروه.

وأحمد أمين شيخ أزهرى تمكن من علوم الشريعة واللغة العربية ، ثم درس ودرّس في مدرسة القضاء الشرعي ، واتصل بمديرها عاطف بك بركات ، وكان صاحب تعليم أزهرى وغربي في إنجلترا ، وأيضاً كان ملتزماً بتوجه عقلي صريح. يقول أحمد أمين : " فقد كنت إلى هذا العهد أحكم العواطف لا العقل ، لم ولا أسمح لنفسي بالجدل العقلي في مثل هذه الموضوعات فالدين فوق العقل ، فإذا جاء فيه ما فوق العقل أمنا به ، لأن علم الله فوق علمنا ، والله أعلم بما يصلحنا ويغيرنا"

"وعاطف بك بركات يأبى إلا تحكيم العقل والبحث عما لا نفهم حتى نفهم ، وكان له غرام بالبحث وصبر على الجدل وكان من أثر هذا الجدل الديني أنى أعملت عقلي في تفاصيل الدين وجزئياته" ويقول في موضع آخر : "وقد أثر في أثراً كبيراً - يعني أستاذه عاطف - من ناحية تحكيم العقل في الدين".

هذه النظرة العقلية الغربية التي لم تكن محدودة عنده أفسدت عليه جوانب خطيرة في كتبه ، إذ اضطر إلى مسaire المعتزلة ، وإلى الطعن في الحديث وكذا أفسد عليه تقديسه لمناهج المستشرقين وقد صرح بحبها واحترامها واستفادته منهج البحث منها ، ولا يعيبه هنا أن استعار منهج البحث ولكن الذي حدث له هو نقل الأفكار والنظريات والبحث لها عن شواهد فيما يدرسه. ومن الغريب أنه وهو يدرس هذه القضايا يقول في فجر الإسلام : "مسلكتنا في سائر ما يروى من الحوادث التاريخية وما يروى من أحاديث أن نمتحنها من ناحيتين : من ناحية السند ، ومن ناحية المتن" وفي التطبيق يساوي بين ما يلي : كتب الحديث ، وكتاب التسلية والكذب الواسع "الأغاني" وكتب المستشرقين حتى لا تكاد تخلص من (نولدكه) و (براون) و (دي ساسي) وغيرهم. خلاصة ما وقع لأحمد أمين التورط ما بين العقلانية الحديثة والاعتزال والمستشرقين وعدم التمييز في المصادر ، وعلى الرغم من كل هذه العيوب فعمله لم يكن مسبوقاً بشيء يفيد منه ويجنبه تلك العيوب وهو خير من كثير ممن جاءوا بعده ودرسوا القضايا نفسها ، ولا يفارقك الإحساس بوجود روحه الإسلامية وثقافته الشرعية فيما كتب مما يدعو للتعاطف والتقدير ولعله أحسن النية ولكنه كان ضحية لموجة التحديث والعقلنة وبداية المشاريع العلمانية التي لم يدرك أبعادها. أما المشاريع الأخرى في دراسة التراث فمن أهمها الدراسة الشيوعية والتي يعد أبرز أفرادها د.حسين مروة في كتابه النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، والدكتور طيب تزييني ، وقريباً من هذا مشروع محمد عابد الجابري في كتبه (تكوين العقل العربي) و (بنية العقل العربي) و (نحن والتراث") والذي لا يساير المنهج الماركسي تماماً في تقليديته ولكن يستفيد من اليسار الفرنسي ويرaug مع عدم وضوح في مدرسته الفكرية وهو في النهاية تلميذ وقي ومقلد لـ (ميشيل فوكوه) من رواد الفلسفة البنوية الكبار.

المدرسة الماركسية :

المدرسة الماركسية في دراسة التراث هي أكثر إنتاجاً وأكثر تقليدية وجفافاً ، كما إنها لا تقدم شيئاً يستحق الاهتمام أو الجدة ، لم ؟ لأن الماركسيين في العالم يعتقدون أن فلاسفتهم الأوائل قد قاموا بعملية التفكير والتقرير ، وفرغوا منها فما على هؤلاء سوى البحث عن الشواهد والتطبيق ، وكان أول روادهم بندلي جوزي في كتابه "من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام" والذي يشيد فيه بالإسماعيلية ومحافظتهم على مطلبهم الأكبر المثالي ومذهبهم الاشتراكي ، ويتباكي جوزي على فقدان التعاليم الاشتراكية للقرامطة وعلى نسيانهم لها. ويدأب هؤلاء على الرفع من شأن المنحرفين والمنحليين والساقين بل والذين خانوا بلادهم وقومهم ، فبندلي جوزي يمجّد بابك الخرمي ويشيد باشتراكيته في الوقت الذي يذكر في معاهداته مع امبراطور الروم ضد المسلمين ، ويتمنى لو قامت الدولة الشيوعية لبابك على أنقاض دولة المعتصم العباسي ، ويصف هذا المضبوط أفكار بابك وطموحاته أنه لو نجح لأقام "دولة جديدة أساسها العدل والإخاء والمساواة" ، هكذا أي عدو للإسلام سيكون عندهم خيراً وأولى حتى لو دمر دمار الزنج وثورتهم.

وثورة الزنج في رأي هؤلاء من أعظم الثورات في العالم : ثورة العمال والبروليتاريا ، الثورة التي يشيب لهولها الولدان لما فعل الزنج من قتل لكل الناس للعلماء والأطفال والنساء واستباحة البصرة واستعباد أهلها هي عند أصحاب هذه الدراسات الماركسية قمة التقدمية و الاشتراكية.

اليسار الإسلامي :

أما أعمال د. حسن حنفي وما يسمى باليسار الإسلامي فقد لخص في مقدمته لكتاب الحكومة الإسلامية نزعة الثورية على ما فيها من سخرية ونقد لمذهب أهل السنة ، وهو في حماسته لقضايا المنهج الثوري ينسى مواقع الاتفاق والاختلاف مع هذه الفرق.

وفى كتابه التراث والتجديد الذي يرى أنه "أشبه بمقدمة ابن خلدون بالنسبة لكتابه تاريخ العرب والبربر ولكنه هذه المرة عن النهضة وليس عن الانهيار.

نظرات الرجل النقدية وسخريته من الواقع والتراث تصل إلى حد غير مؤدب في كثير مما يتناول بالبحث وهو يرى نفسه ثائرا إسلاميا ولكن من منطلقات يدرك هو تماما أنها غير إسلامية ، وإلا فما جدوى الاحتقار لما لدى المسلمين ، وهل الاحتقار هو الحل ومن يراجع بعض ما كتب يجد المنطلقات الطبقيية فيما يكتب ، وثوريته تجعله لا يتأدب أحيانا حتى مع لفظ الجلالة ، كما أن الجوانب الإيمانية والروحية لا تكاد توجد في هذه المعالجة غير الإسلامية وبخاصة أن حنفي فيما يصرح ويكتب يرى أنه يحمل الحل الوحيد النادر ! ولو تأمل بضاعته لعلم أنها غريبة كل الغرابة عن روح هذه الأمة.

الزيارة بين النساء على ضوء الكتاب والسنة

- ٢ -

خولة درويش

استئذان الزوج في الخروج :

إن الإسلام يأمر بالنظام في كل الحالات، في العادات والمعاملات، في السفر والحضر، فإذا خرج ثلاثة في سفر دعا إلى تأمير أحدهم ، لذلك وتنظيماً للمجتمع فقد جعل قوامه الأسرة للرجل ، فهو أقدر على القيام بهذا الاختصاص من المرأة ، إذ جعل مجالها الطبيعي يتناسب مع فطرتها النفسية وتكوينها الجسمي ، وهو إمداد المجتمع المسلم بالأجيال المؤمنة المهيأة لحمل رسالة هذا الدين.

ولا أحد ينكر فضل الاختصاص من حيث قلة الجهد ، وجودة المردود ، سواء في النواحي المادية أو الإنسانية ، هذه الرئاسة والقوامة تقتضي وجوب طاعة المرأة لزوجها ، وقد جاء في الفتاوى لابن تيمية : (والمرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك بها من أبويها ، وطاعة زوجها أوجب ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسك و ما لك " .

وفي الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيما امرأة ماتت وزوجها راضٍ عنها دخلت الجنة " وقال الترمذي حديث حسن.

وقد ورد أيضاً في المسند وسنن ابن ماجة وصحيح ابن حبان عن ابن أبي أوفى قال : لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا معاذ ؛ قال : أتيت الشام فوجدتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم ، فوددت في نفسي أن فعل ذلك بك يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تفعلوا ذلك، فإنني لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لغير الله ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . والذي نفسي محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه " .

وإذا أراد الرجل أن ينتقل بها إلى مكان آخر مع قيامه بما يجب عليه وحفظ حدود الله فيها، ونهاها أبواها عن طاعته في ذلك فعليها أن تطيع زوجها دون أبويها .
وإذا نهاها الزوج عما أمر الله أو أمرها بما نهى الله عنه لم يكن لها أن تطيعه في ذلك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " (١) .

هذا ، وطاعة الزوج ليست تسلطاً منه ، ولا امتهاناً للمرأة ، وانتقاصاً لشخصيتها ، إنما هي من طاعة الله والقربات إليه التي تثاب عليها ويجب أن تعتر بها... وهذا ما يميز المسلمة الواقفة عند حدود الله عن العابثة المتسبية ، التي لا أب يردها ولا زوج يمنعها ، تخرج من البيت متى تشاء وحيث تشاء ، فتزرع هذا الشر لتحصد الندامة فيما بعد بمشاكل لا تنتهي ، واتهامات كثيرة ، وواقع مرير ، ونتائج وخيمة ، ولا ينجي من ذلك إلا العودة إلى تحكيم شرع الله : ((وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)) [البقرة: ٢٢٨] ، وهذه الدرجة هي قوامة الأسرة .
(ولا يحل للزوجة أن تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها ، سواء كان ذلك لكونها مرضعاً أو لكونها قابلة أو غير ذلك من الصناعات ، وإذا خرجت من بيت زوجها بغير إذنه كانت ناشرة عاصية لله ورسوله ومستحقة للعقوبة) (٢) .

وهكذا فخرجها للعمل بغير إذن زوجها نشوز عن طاعة زوجها وعصيان لله ولرسوله فكيف إذا خرجت للتزاور أياً كان السبب !!؟ ولو كان ذلك لزيارة والديها المريضين .
(للزوج منعها من الخروج من منزلها إلى مالها منه بد ، سواء أرادت زيارة والديها ، أو عيادتهما ، أو حضور جنازة أحدهما . قال أحمد في امرأة لها زوج وأم مريضة : طاعة زوجها أوجب عليها من أمها ، إلا أن يأذن لها) (٣) .

وحتى الخروج للعبادة تحتاج معه إلى إذنه "عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد للعبادة فأذنوا لهن" .
وعن ابن حبان من حديث زيد بن خالد : لا تمنعوا إماء الله مساجد الله "قال القسطلاني : أي إذا أمنت المفسدة منهن وعليهن ، وذلك هو الأغلب في ذلك الزمان ، بخلاف زماننا هذا الكثير الفساد والمفسدين وقد ورد في بعض طرق الحديث ما يدل على أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد وذلك في رواية حبيب بن أبي ثابت عن ابن عمر بلفظ: "لا تمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن" ، وحديث عائشة رضي الله عنها في منع النساء علقته على شرط لو رأى رسول الله ما أحدثته النساء .

وفى رواية عند البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : "إذا استأذنت امرأة أحدكم - أي أن تخرج إلى المسجد أو ما في معناه كشهود العيد وعبادة المريض - فلا يمنعها" .
قال القسطلاني . وليس في الحديث التقييد بالمسجد ، إنما هو مطلق يشمل مواضع العبادة وغيرها .
ومقتضى الحديث : أن جواز خروج المرأة يحتاج إلى إذن الزوج) (٤) .

أما قول القائل : إنهن لا يخرجن من بيوتهن مطلقاً لقوله تعالى : ((وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)) فليس بحجة له بدليل قوله تعالى بعدها : ((وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)) (والمقصود به عند خروجهن .
(ومعنى هذه الآية : الأمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء ، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة) (٥).

(وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقاً ، وإنما هي إيماء لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن وهو المقر وما عداه استثناء طارئاً لا يتقلن فيه ولا يستقررن وإنما هي الحاجة وتقضى وبقرها) (٦).

وقد عرف عن أمهات المؤمنين والصحابيات أنهن كن يخرجن في حوائجهن وللمشاركة في الغزو .
(فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأمر سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى) (٧).

وفيه خروج للنساء في الغزو والانتفاع بهن في السقي والمداواة لمحارمهن وأزواجهن وغيرهم مما لا يكون فيه مس بشرة إلا موضع الحاجة.

وهذه أم عمارة تحدثنا حديثها يوم أحد : (خرجت أول النهار ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والريح والدولة للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف وأرمى بالقوس حتى خلصت إلى الجراحة.

وعن عمر رض الله نه عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما التفت يوم أحد يمينا ولا شمالاً إلا ورأيتها تقاتل دوني) (٨).

وتستأذنه صلى الله عليه وسلم أم سنان الأسلمية في الخروج إلى خيبر للسقيا ومداواة الجرحى فقال لها عليه الصلاة والسلام : «فإن لك صواحب قد أذنت لهن من قومك ومن غيرهم فكوني مع أم سلمة» (٩).

وفي خيبر أيضاً عن امرأة من بني غفار قالت : (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بني غفار فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - وهو يسير إلى خيبر - فنادوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال : "على بركة الله" فخرجنا معه) (١٠).

(حتى المقعدة فلها الخروج في حوائجها نهاراً ، سواء كانت مطلقة ، أو متوفى عنها ، لما روى جابر قال : طَلَّقْتُ خالتي ثلاثاً فخرجت تجذ نخلها فلقيتها رجل فنهاها ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : "أخرجني فجزني نخلك لعلك أن تتصدقني منه أو تفعلني خيراً".

وروى مجاهد قال : "استشهد رجال يوم أحد فجاءت نساؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن. يا رسول الله نستوحش بالليل أفنبيت عند إحدانا فإذا أصبحنا بادرنا إلى بيوتنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تحدثن عند إحدكن حتى إذا أردتن النوم فلتؤب كل واحدة إلى بيتها" (١١).

ويدخل الرسول صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها وعندها امرأة قال : من هذه ؟ قالت: فلانة ، تذكر من صلاتها ، قال: "مه ، عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا ، فكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه" (١٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان.

كما طلب من الشفاء - وهي من المهاجرات الأول وباعيت النبي صلى الله عليه وسلم وكانت من عقلاء النساء وفضلتهن - قال لها صلى الله عليه وسلم : «علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتاب» (١٣).

وكيف يكون تعليمها إلا بلقائها معها وخروجها إليها.

فهذه كلها حالات تخرج فيها المرأة بمعرفة الرسول صلى الله عليه وسلم وإقراره بخروجها أو أمره وإذنه الصريح به ، فلو كان المقصود بالقرار في البيت عدم الخروج المطلق لنهى عن الخروج ولما أذن به.

ثم إن الحبس الدائم للمرأة في البيت ما هو إلا عقوبة شرعية - كان قبل أن يشرع حد الزنا فنسخت هذه العقوبة بالحد الشرعي - أقول كان الحبس في البيوت للمرأة التي تأتي الفاحشة وذلك لقوله تعالى : ((وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَقَّأَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا)) [النساء: ١٥].

أما المرأة العفيفة الملتزمة بأحكام دينها ، والتي تراقب الله تعالى في حركاتها وسكناتها فهي تقدر شرف مهمتها وعظم مسئوليتها : إنها إن قرت في بيتها فهي في عملٍ واسعٍ يقظ ، لا فراغ اللاهيات ولا تفاهة العابثات من ربات الفيديو والأزياء والسينما...

إنها تعد لأمتها الإسلامية أبطالها الذين يستعيدون مجدها فتربيهم على الاعتزاز بقيم الإسلام ليفدوه بأنفسهم إن واجههم الخصوم ، ويعملون وسعهم لإعلاء كلمة الله.

وإن أرادت الخروج من بيتها فلن يكون ذلك إلا إن كانت المصلحة الشرعية في الخروج راجحة عنها في البقاء.

وإن خرجت : فبالحدود المشروعة وبالطريقة المشروعة ، تستأذن الزوج المسلم ولا تخرج بغير إذنه ، وإلا اعتبرت عاصية لمله ولرسوله ، وبالمقابل فزوجها المسلم يرعى الله فيما أئتمنه ، فيحرص على أن يبعدها عن الشبهات ومواطن الزلل. ويأخذ بيدها إلى كل خير ، ليشاركها أجرها سواء كان زيارة أقاربها وصلتهم أو بر والديها ، أو صلة أخواتها في الله ، أو العلم المشروع.

ثم إن الأصل أن يبني البيت المسلم على المودة والرحمة ، لا الغلظة والتسلط. فالزوج والزوجة كلاهما يحكم الشرع ويزن الأمور بمقياسه ، فلا يتعسف الرجل في استعمال حقه الذي منحه الله إياه ويحفظ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالمرأة : " استوصوا بالنساء خيراً " وبالمقابل لا يجمع الهوى بالمرأة ولا تستكبر عن طاعة زوجها فتكون في عداد الناشزات.

أما عند عدم الزوج لوفاته ، أو لعدم زواج المرأة. فتستأذن أبويها وهذا من برهما وحسن صحبتها فهما أحرص الناس على حسن سمعتها وجلب الخير لها.

الهوامش:

١- الفتاوى لابن تيمية ٣٢/من ٢٦٠-٢٦٤ بإيجاز.

٢- الفتاوى لابن تيمية ٣٢/٢٨١،

٣- المغني ٧/٢٠،

٤- عون الباري ٢/٢٨٥-٢٨٧ باختصار.

٥- أحكام القرآن للقرطبي ١٤/١٧٩،

٦- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥/٢٨٥٩،

٧- شرح صحيح مسلم ١٢/٨٨،

٨- الإصابة ٤/٤٥٧،

٩- الإصابة ٤/٤٤٣،

١٠- البداية والنهاية لابن كثير ، ٤/٢٠٤،

١١- المغني ٢٢٦،/٧

١٢- فتح الباري ١٠١،/١

١٣- الإصابة ٣٣٣/٤.

دفاع عن اللغة العربية

منصور الأحمد

(يعلم كل من له إلمام بأسرار العربية أن الأسلوب المصطلح عليه في ترتيب معاجمها لا يناسب حتى ولا الكثيرين ممن نالوا قسطاً وافراً من الإحاطة بقواعد الصرف وأحكامه ، ليتمكن من رد الكلمة إلى أصلها المجرد ، توصلاً إلى الاهتداء إلى مكانها من القاموس، على أن الاشتقاق وما يلحق بأبنية الكلم من عوارض الإدغام والإدغام الإعلال ، وغير ذلك لمن أشد الأمور تعقيداً في اللغة العربية) (١).

هذه "الكلمة" التي قدمناها تصلح نموذجاً لدعوى كثيرة ، تصدر عن أناس متعددي المشارب ، مختلفي النوايا ، لكن يجمعهم هدف واحد ، هو تزهيد الناس بالعربية، وتنفيرهم منها ، ويتذرعون إلى ذلك بما يشبه الحجج ، ويلبس ثوب الدليل ، ولكن إذا تفحصته لم تجده من الحجج ومن الأدلة في شيء. وسوف نناقش الدعوى المتقدمة ، ليتبين لنا ما تنطوي عليه : هل هو من المسلمات الثابتة ، أم أنه ذريعة إلى أمر آخر هو الصد عن تعلم هذه اللغة ببث الكراهية لها في النفوس ، والتنفير عنها بكل وسيلة؟!

فيما يتصل بالقضية الأولى ، هل صحيح الادعاء أن البحث في المعاجم العربية صعب إلى هذه الدرجة - حتى على الكثير ممن نالوا قسطاً وافراً من الإحاطة بقواعد الصرف وأحكامه ؟ - وهل هناك "معاناة حقيقية" يعاني منها المدرسون والطلبة في هذا المجال ؟ إن الأمر انتهى بطرق ترتيب المعاجم إلى طريقتين رئيسيتين :

أولاهما : طريقة الصحاح ، والقاموس المحيط ، ولسان العرب ، وهي الطريقة المعروفة بطريقة "الباب والفصل" والتي رتب فيها الكلمات في باب الحرف الأخير من جذورها ، ثم رتب ترتيباً هجائياً داخل الباب بعد ذلك ، (فـ بدأ) و(نشأ) توجدان في باب الهمزة ، الأولى في فصل الباء ، والثانية في فصل النون.

الثانية : الطريقة الهجائية المألوفة الآن في كافة معاجم اللغات الأخرى ، وهي أيضاً معروفة في بعض المعاجم العربية غير الحديثة: كأساس البلاغة، والمصباح المنير، وهي: وضع الكلمة في باب الحرف الأول من جذورها ، مع مراعاة الترتيب الهجائي أيضاً في الحرف الثاني والثالث وهكذا. فالكلمتان السابقتان (بدأ) و (نشأ) توجد الأولى في باب الباء ، والثانية في باب النون. ومع هذا فقد صدرت طبعتان للقاموس ولسان ، رتب المواد فيها هذا الترتيب الأخير ، وهناك أخذ ورد في فائدة ذلك ، ولعل ترتيبها بهذه الصورة جاء خروجاً من كثير من التقولات التي تقال عن صعوبة الطريقة السابقة.

وهذه الصعوبة المزعومة في ترتيب المعاجم العربية لا تعدو ما يماثلها من الصعوبات التي يواجهها الباحث في معاجم اللغات الأخرى.

ولدى التجربة ظهر أن طريقة البحث في هذه المعاجم المتهمج عليها بالحق والباطل سهلة حتى على من لم "ينل قسطاً وافراً من الإحاطة بقواعد الصرف وأحكامه" ! ولو صرف أي طالب متوسط ساعة من وقته (بجد وحرص) لتعلم أساس طريقة البحث والتدرب عليها لكان ذلك كافياً. (وهذا الأمر لا علاقة له بما هو كائن الآن من وجود كثير من الخريجين ، ممن لا يرهقون أنفسهم لتفرغ لهذا الأمر ولو ساعة من زمن ، ثم يستغربون - ويستغرب الناس منهم - حيرتهم أمام النظر في معجم من معاجم العربية ، وبدل إلقاء اللوم على كسلهم وتفريطهم يلقونه على هذه المعاجم الصعبة المرتقى، المعقدة التركيب ! فهذه النتيجة المؤسفة مركبة من عدة مقدمات أفضت إليها ، وتحتاج إلى معالجة على حدة).

إن كان شأن المعاجم العربية ليس بالتعقيد الذي انتهت الكلمة السابقة إليه ؛ وأن كثيراً مما يشاع حولها هو تضخم وتهويل ؛ إذاً ، فما الأثر الذي تبقى هذه الكلمة ومثيلاتها في نفوس أكثر قرائها ؟ إنه أثر غير محمود النتيجة ، فهو تزهيد وتثبيط ، تزهيد لأبناء العربية بلغتهم ؛ وتثبيط للهمم حتى تقعد عن التعرض لتعلم ما ينفع في بناء الشخصية ، والارتقاء بها. والأفكار أوعية مفتوحة إذا أنفت أن تمتلئ بشيء ينبذ المجتمع ، وتُنشر سموم الدعاية ضده ؛ فلا بد من أن تفتش عن بديل تملأ به الفراغ ، وتتطلع إلى محل تحلله المنطقة المهياة المفرغة ، وليس المحتل هنا غير اللهجات العامية ، أو اللغات الأجنبية وما يلحقها من تمكن وغلبة لما تمثله من عقائد ، وما تجلبه من أفكار .

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً ، فتمننا !

والآن فلننظر في بناء هذه الكلمة ذاته لنرى نصيبها من الصواب أو الحقيقة.

١- (ليعلم كل من له إلمام بأسرار العربية) عبارة يبدو ظاهرها لا غبار عليه ، ولكن أعد قراءتها كلمة كلمة لتعلم أن منطوقها يخالف ما يريد صاحبها ، فهو يريد أن يثبت بديهية وهي أن كل دارس للعربية يعلم ما سيشير إليه ، ولكن الأسرار لا تلم بها إماماً ، بل تُستبطن استبطاناً ، وتعالج علاجاً مضمناً حتى تكتشف ، وعلى هذا فإن العارفين بأسرار العربية ليسوا مجتمعين على ما سينتهي إليه صاحب الدعوى ، وهذا نقض للتعميم الفاضل : يعلم كل من له إلمام...

٢- (... أن الأسلوب المصطلح عليه في ترتيب معاجمها...) وهذا أيضاً تعميم يضيف إلى برودته جهلاً غليظاً ، فالمعاجم العربية ليس لها أسلوب واحد في ترتيبها ، بل لها طرق متعددة ، وأساليب متنوعة. فأى أسلوب منها يعني !؟

٣- (... لا يناسب حتى ولا الكثيرين ممن نالوا قسطاً وافراً من قواعد الصرف وأحكامه...).

لو أنه قال مثلاً : لا يناسب من لم ينل قسطاً وافراً من قواعد الصرف وأحكامه ؛ لكان في الجملة الروح ، ولكن جنوحه إلى تضخيم ما لا يحتاج إلى تضخيم أبى عليه إلا أن يطلقها هكذا مرة واحدة أن هذه المعاجم ليس فيها خير ألبته ، لا للمبتدئين فقط بل للعلماء أيضاً وهي ليس إلكاماً يكذ الأذهان ويضيع الأعمار ! (وقف عند هذه الكلمات قسطاً - وافراً - الإحاطة - فهي كافية أن تلقى في نفسك الرعب ، وتبعث الرهبة من مكانها !)

٤ - ثم اقرأ معي تنمة الكلمة على مهل ، ألا توحى إليك - وقد فرغت منها - بوصف مهمة اكتشاف القارة القطبية ، كلف بها شخص غير مُدرَّب ، ولا فائدة من تدريبه ، وليس هذا فحسب ، بل هو أيضاً - مجرد من أسباب مقاومة الصقيع ، على علة مستكنة في جسمه!؟

كأنه يقول لمن يهم بتعلم شيء من هذه اللغة : مالك ولهذا العناء المعنى ، ولماذا تضيع الوقت فيما لا طائل تحته ، ولا ثمرة له ، مالك ولمعاجم العربية ونحوها وصرفها ، لماذا تفر من السهل الميسر

، إلى الحرج والتعقيد؟! وهكذا تبني جدران سميكة من الوهم والتضليل بين هذه اللغة وبين أبنائها.

وسرّح النظر في واقعنا الثقافي مشرقاً ومغرباً ، وردده فيه صعوداً ونزولاً ترى أن مثل هذا التقييح القولي لكل ما يتعلق بلغتنا العربية ، والحط من شأنها قد انضاف إليه - وأسفاه - تقييح عملي مجسم ومصور ، والحال ناطقة بهى وشاهدة عليه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال. ووالله ، إن السكوت على هجران هذه اللغة ، وعدم الغضب لها حين تُرمى بالنقائص ، وتُنقَصُ بالحيث ليعادل انتهاك الحرمات ، وضياع المقدسات ، إن لم يكن أكبر.

الهوامش:

١- من مقدمة قاموس إلياس العصري (عربي - إنكليزي).

رؤية إسلامية

في المجيز والمجاز (١)

د. مصطفى السيد

يتحتم علينا - بسبب من انتماننا الإسلامي ، وهويتنا الإيمانية - أن نستحضر قيم الإسلام ومقوماته في قراءة أي عمل أدبي ، بل في شؤون الحياة كلها وشجونها جميعها (لأن الإسلام يتغلغل في حياة أفرادها فإن مسألة التزامه في الأدب يجب أن تكون محل تقدير) كما يقول أحد النقاد (٢). وإبراز هذه الهوية ليس بدعاً ، أو على الأقل ينبغي ألا يكون كذلك في دوائر أنصار الأدب الحديث ومحاربيه ، فهذا شيخ التحديث ، وملهم الشعر العربي الحديث رؤيته وشكله وتشكيله - ت. س. إليوت - يعلن صراحة أنه (أنكلو كاثوليكي في الدين وكلاسيكي في الأدب ، وملكي في السياسة) (٣)

ولو تجرأ مثقف ورفع عقيدته بمثل هذه المقولة عن معتقداته الإسلامية والأدبية والسياسية أمام دعاة الأدب التقدمي لانهاالت عليه النقود المتهكمة من كل وجه.

وهذا يوسف الخال النصراني ديانةً ، السوري بلداً ، اللبناني مهجراً ، والذي يعد قنطرة مهمة بين إليوت ، وحوارييه في العالم العربي ، كان يركز على بعث المفرد التوراتي والإنجيلي ، واستثمار نصوصهما في التعبير الرمزي. والدكتور عبد الواحد لؤلؤة يخبرنا أن (الكتاب المقدس كان العمود الفقري للأدب الأوروبية في شتى عصورها) (٤).

وحضور الإسلام حكماً لا يعني استبعاد الفائدة من إبداعات الآخرين وتجاربهم الوجدانية الناضجة في كل مجال ، فالشيطان بما يتمتع به من مكانة سيئة ، وحضور بغيض قد يقول الصدق ويتلفظ بالحق كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة عن الشيطان: " صدقك وهو كذوب " (٥).

وعلاقة الأدب الحديث الذين يتوجس أكثرهم خيفة من الإسلام ، هل وجدوا في الأنظمة "التقدمية" الأمان على أنفسهم والضمان لفكرهم ؟ أم كانت النظرة الغربية المحضة للإسلام ، والتجربة الإسلامية المشوهة في كثير من الأمكنة ؛ كانت وراء توجسهم وبالتالي وراء اختيارهم لنماذج لا تحسب على الإسلام إلا اعتسافاً وقسراً كما فعل صلاح عبد الصبور ، عندما اختار الحلاج ليعرض من خلاله مأساة الثقافة والمتقفين وحرية الكلمة ، وكيف دفع الحسين بن منصور الحلاج رأسه ثمنا

لفكره (٦) وللكمة التي آمن بها مُدِينَا (عبد الصبور) العلماء والقضاة الذين ساهموا ويساهمون في اغتيال (نبته الحرية وشجرة العبقريّة المتمثلة بالحلاج وبالجلاليج المعاصرين. والمطلع العادي غير المتخصص على العصر العباسي يجد أن هموم الثقافة وشجون الواقع والمستقبل وهمومه والعلاقة الأبية مع السلطة كان يمثلها الإمام أحمد- رحمه الله - الذي لم يحل سجنه وجلده بينه وبين كلمة الحق ، بل إن الموت نفسه كان احتمالاً قائماً وقريباً. إن تلك الوقفة العالية في سماء التاريخ التي وقفها الإمام أحمد - لا قتل الحلاج - هي التي كشفت للدولة العباسية عزلتها على الصعيد العلمي والشعبي.

فقد روى الذهبي أن عالماً ممن كان له في العطاء سهم ، خيرته الدولة بين أن يناقض الإمام أحمد ويحتفظ بعطائه أو يستمر في تأييده لموقف الإمام أحمد فيخسر عطائه ، فاختر الثانية ، فعلمت العامة التي لم تكد تفهم الموضوع الذي كان محل خلاف ، فعاد الرجل إلى بيته الذي يضم بين جدرانه ثلاثين نفساً يعولهم هذا العالم فاستقبلوه بالتلوم فرد عليهم : إن الله لن يضيعنا ، فلم تغب الشمس إلا وصاحب حانوت يقرع باب هذا العالم ثم يبادره قائلاً : تبتك الله كما ثبت الإسلام !! كم كان يعطيك هؤلاء ؟ يقصد عطائه من الدولة ، فقال : كذا ، فقال صاحبة الحانوت : خذ هذا المبلغ المساوي له ولك مثله كل شهر.

هل كان عبد الصبور مهتماً بالحلاج لما يمثله من رمز ثقافي رافض ؛ إذا كان كذلك فالإمام أحمد أولى بذلك ، ولكن رَفُضَ رَفُضَ الإمام أحمد لأنه كان ملتزماً بحدود النص الإسلامي في أدب العلاقة مع السلطة التي هي رمز الأمة ، فقد كانت سياط المعتصم تلهب ظهره وهو يقول له يا أمير المؤمنين!!! لماذا ؟

لأن الخلاف مع السلطة لا يعني إسقاطها ، ولأن الإمام أحمد كان على وعى تام بالنتائج الخطيرة للحركات التي أرادت إسقاط السلطة ابتداء بحركات الخوارج والشيعية وانتهاء بحركة الفقهاء- مع ابن الأشعث - كان مزيداً من الضحايا وتعميقاً للخلافات وإجهاضاً للطاقت العامة ومنبعاً لأحزاب جديدة.

أم لعل سر اهتمام صلاح بالحلاج لصوفيته التي ينظر إليها كحركة احتجاج داخلية تغطي أسئلتها وتساؤلاتها بالرمز ، ولربما كان الترميز المعاصر والغموض والإبهام في الشعر والقصة موصولاً بالرمز الصوفي شكلاً ومضموناً ، ولعل ذلك يكشف سر الاهتمام بالشعر الصوفي من قبل المدرسة الحديثة في الأدب.

ولئن كان فوز نجيب محفوظ (ممثل الرمزية (٧) في الجناح الآخر للأدب) بجائزة نوبل موضوع هذا المقال فإني أقول ابتداءً. إن الرجل بكل المقاييس الفنية قد بات شيخ الرواية العربية كما وكيفا ، وهذه حقيقة أكبر من أن يماري فيها جِدْلٌ أو متعنت.

فقد توصل إلى إبداع نماذجه الخاصة ، وهذا إنجاز ضخم في عالم القصة والمقصود بالنماذج بعض شخصيات رواياته (الذين هم في حقيقتهم مجرد أفراد حين نرجع إلى سيرهم ، ولكن البشرية حين تأملت ذاتها فيهم ، رفعتهم من مستوى الفردية إلى مستوى النموذج) (٨) ومثل ذلك من القرآن - فرعون - وقارون وأيوب عليه السلام. فالأول لأش اسم شخص بعينه ورمز ونموذج لكل طغيان سياسي ، والثاني رمز لكل طغيان مادي (٩) ، والثالث نموذج للصبر والمصابرة. ولكن نماذج محفوظ كانت محدودة مكاناً ومكانة وموقفاً سياسياً، أما المكان فهو حي

(الجمالية) الشعبي بالقاهرة الذي ظل محفوظ مسكوناً بأجوائه نفسياً وتاريخياً معلناً أن (هذا الحي هو مصر) (١٠) وهو عندما ينتقل منه ينتقل جسداً وتبقى (الجمالية) مضموناً أو ينتقل إلى معادل له (كزقاق المدق) الذي هو أيضاً رمز لمصر كلها) (١١). ولنا أن نتساءل كيف تختزل مدينة القاهرة، أو كيف تختصر أمة كمصر وتتوحد خصائصها بحي (الجمالية) أو (زقاق المدق)؟.

مصر بترائها وراثتها الفكري وعطائها المتدفق في كل العصور والدهور تضوّل لتتمثل في حي شعبي يقول محفوظ عن خصائص الطبقات الشعبية فيه (يلعب الجنس في حياتها أدواراً رهيبية في سقوط الكثيرين وفي سلوكهم ، وحيث أكثر الناس يتمسكون بالشعارات الدينية ، وحيث كثير من الانتهازيين الذين يستطيعون ببساطة اللعب بالعقول الغبية) (١٢).

لِمَ هذا الجمع بين المتمسكين بالشعارات الدينية وبين الجنس ذي الأدوار الرهيبية في السقوط؟ لم الزج باسم الدين في هذا التشكيل المتنافر؟ أما المكانة فهل هذه النماذج المنحرفة هي المثل الاجتماعي الوحيد الموجود في هذا الحي؟ وهل تقلص الخير إلى الحد الذي يخيل فيه القارئ (نجيب) تفرد النموذج الساقط وانفراده واستثنائه بالساحة؟

وهل مسؤولية الكاتب فقط تشريح النموذج وتقييمه حتى تتحدد مواقف القراء من هذه الحشرات البشرية؟

إن ذلك إنجاز مهم ولا شك ، ولكنه ليس كافياً ، فالقرآن ذكر خيانة امرأتي نوح ولوط ثم أعقبهما مباشرة بنموذج مضيء - امرأة فرعون - ولعله سلك هذا المسلك (والله أعلم) حتى لا تفتقد المرأة صورتها الطيبة بسبب هاتين المرأتين المتردبتين بما أغضب الله ورسوله ، وربما كان في استقدام نموذج امرأة فرعون من بيئة تجاوزت في فسادها حي (الجمالية) - كانت امرأة فرعون تحت رجل يقول (أنا ربكم الأعلى) - ربما كان في ذلك إشارة واضحة إلى أن الزهور قد تتفتح في أسوأ الأمكنة مناخاً وبيئةً.

ولما كان فرعون يتهدد ويتوعد ويطلب ألا يحال بينه وبين موسى ((ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى)) [غافر: ٢٦]، وكان الجمهور غارقاً في التصفيق رغبة أو رهبة لهذا البهلوان ، كان القرآن يسمعنا صوت احتجاج متعقل يجبه هذا الطوفان بقوة هادئة أو بهدوء قوي ! وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: ((وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ)) [غافر: ٢٨-٣٤].

ألم يكن في (حي الجمالية) رجل رشيد ؛ أم أن الكاتب لم يشأ أن يوجد هذا الرجل؟ في رواية (السكرية) يقول محفوظ على لسان سوسن حماد : (المقالة صريحة ومباشرة ، ولذلك فهي خطيرة ، أما القصة فذات حيل لا حصر لها ، إنها فن ماهر) (١٣).

يقول الأستاذ إبراهيم عامر في عدد الهلال الخاص عن نجيب محفوظ ١٩٧٠ معلقاً على ذلك : (هذه العبارة تبدو لي وكأنها الدستور الذي التزم به نجيب محفوظ منذ بدأ يكتب).

هل تخفى (نجيب) من خلال قصصه بأبطاله أو من وراء أبطاله ليعرض شكوكه أو أزمته الإيمانية، لا أزمة هؤلاء الأبطال؟

إن أبطال القصص ليسوا إلا وجوهاً مختلفة للكاتب ، وبينهم وبينه مشاعر متبادلة، وتطورهم أو انحدارهم في عالم الفن القصصي ذو صلة قوية بوجودهم في عالم الواقع أحياناً كثيرة ؛ كان نجيب

محفوظ يكتب في (المجلة الجديدة) ١٩٣٤-١٩٣٨ التي كان يصدرها سلامة موسى مقالة عن (الله) وصفت بأنها جريئة عدد يناير ١٩٣٦ ثم يقول في عدد مارس ١٩٣٦ بعد عرضه (لفكرة الله في الفلسفة) :

(والآن فلنسأل أنفسنا هذا السؤال : ما الذي تتركه في النفس جميع هذه الآراء من الأثر ؟ إن البراهين العقلية تمهيد حسن ، ولفت قيم ، ولكنها لا تبلغ بالإنسان درجة الاعتقاد الحقيقي... وإني أجد نفسي بعد الاطلاع عليها حيث كانت من القلق والاضطراب) (١٤).

ويقول أحد كبار النقاد :

(تحضرنى لنجيب محفوظ هنا مجموعته القصصية (دنيا الله) وفيها شجب أسلوبه التقليدي في القص ، وتخطى حدود المظهر من الوجود إلى مطلق الوجود ، ولقد اصطنع العبث أو اللامعقول أحيانا ولجأ إلى الرمز في أثناء مناقشته لقضيتي الحياة والإيمان ، ونلاحظ بسهولة أنه وهو يطلب منا أن نتجاهل الموت لعشوائيته (١٥) ينادي بعفوية العقيدة ، ولكنه يلح على الإحساس بالغربة والضياع.

أترأه فقد الإيمان ؟

لماذا يبدو وكأنه يرفض السعادة ويأبى أن يرسم طريق النجاة ؟.

(نستطيع أن نقول إن نجيب محفوظ الذي سلم بمقدرات الدين في أكثر أعماله ، وقف إزاءها هذه المجموعة - أي دنيا الله - وقفة المواجه المتحدي ، أو وقفة المتسائل المشدوه ، ولنقل وقفة المحير أمام أخطر المشكلات) (١٦).

أما محدودية نماذج محفوظ في الموقع السياسي فأضرب لذلك مثلاً بقصته (ميرامار) والتي جعل فيها (زهرة) البطلة رمزاً للثورة المصرية (٢٣ يوليو) كما يرى كثير من دارسي هذه القصة. وبقية الأبطال رمز لمواقف القوى القائمة في الساحة من الثورة ، (عامر وجدي) صحفي قديم شارك في كفاح الشعب ، (حسني علام الماجن، منصور باهي) التقدمي فكراً الخ... هل هؤلاء فعلاً وغيرهم الذين في القصة هم وحدهم الذين كانت لهم آراء ورؤية وموقف من ثورة يوليو ؟

ألم تكن قوى أخرى وقفت مستندة إلى عقيدتها الإسلامية تحاور ثم تناوى هذه الثورة (١٧).

وقصة (السراب) التي ولد فيها البطل من رحم الدراسات النفسية الغربية - لا من البيئة المصرية - وذلك ليكون للعرب نموذج كأوديب وهاملت والاخوة كارامازوف ، ولو كانت الحقائق الاجتماعية العربية لا تسعف الكاتب ، فهل يعقل أن يظل الطفل (كامل رؤية لاط) طفلاً في تعلقه بأمه يكبر فيه كل شيء (إلا هو) (يستحم معها فتضعه في الطست عارياً وتجلس أمامه متجردة ، وكان لا يطيق فراقها ، وكانت هي كذلك لا تطيقه (أي الفراق) كانت قد حشدت كل أمومتها من أجله بعد أن استرد زوجها الطفلين الآخرين وفضلاً عن هذا كان بين الطفل وأمه تشابه كبير ، فقد كان وجهه نسخة من وجهها ، وقد اعتاد أن ينام في سرير أمه حتى بلغ السادسة والعشرين من العمر ، وحين أنبه جدّه على ذلك ابتاع سريراً آخر ولكنه وضعه في حجرة أمه) (١٨).

والكلمة الأخيرة في (المجيز) أي مانح الجائزة ، فمن المعلوم أن قمة أعمال محفوظ الأدبية كانت قد تحددت وظهرت قيمتها وتم نضجها قبل منح الجائزة بسنوات وما أضيف أخيراً لم يعط الكاتب وقصصه مزايا تنتزع الجائزة.

ولكن المزايا جاءت من خارج النص الأدبي ومن خلف سور القصص ، من عالم السياسة عندما أضيف محفوظ على أدبه (طابع الإنسانية) وذلك (بضرورة العلاقة مع إسرائيل، والصلح مع اليهود والتفاهم مع الصهيونية لعيش مشترك في فلسطين ومصر ولبنان).
في كلمة مختصرة للناقد جهاد فاضل في مجلة الحوادث ١٣/١١/١٩٨٧ بعنوان سقوط جائزة أم سقوط حضارة ؛ أنقل بعض ما جاء في هذه الكلمة الرائعة وإن كانت جديرة كلها أن تنتقل :
(إذا كان القانون يقول : الأصل براءة كل إنسان حتى يثبت العكس فالأصل في جائزة نوبل أنها متهمة حتى يثبت العكس ، ذلك أن الواقع يثبت أن وراء منح هذه الجائزة الأدبية الهامة ، مقاصد غير بريئة فهي لا تعطى كل سنة ومنذ سنوات بعيدة إلا لكاتب يهودي ، أو لكاتب منشق أو لمولى من موالي الغرب ، ولو كان كاتباً من الدرجة الثالثة ولو كان في العالم عشرات الكبار الأصلاء والمستحقين.

في أدق تعريف لجائزة نوبل ، يمكن القول أنها جائزة النظام العام الغربي الأدبي والفكري والسياسي ، وليست شيئاً آخر ، جائزة النظام العام للغرب لا جائزة الأدب والقيم الأدبية والإنسانية الرفيعة ، وتاريخها ناطق أنها لا تمنح إلا من زاوية خدمة أهداف الغرب العليا ، أداة من أدواته تماماً كالبنديقية والمدفع والرادار وما إلى ذلك.

ويفضل (في المنهج) المنشق على أيولوجية الشرق والمبهور بالغرب وثقافته وحضارته).
(وعندما يدعى هذا المنشق في الأسباب الموجبة لمنحه الجائزة ثائراً عربياً أو إسلامياً في حين أنه ثائر على العروبة والإسلام).

(بدأت جائزة نوبل عندما أراد عالم سويدي اسمه نوبل -التكفير عن ذنب ألحقه بالإنسانية هو اختراعه للديناميت ولكن اللجنة القائمة على الجائزة كثيراً ما تعطيها للتفجير لا للتكفير ، وبذلك تراعي الاختراع الأصلي أكثر مما تراعي رغبة التوبة عند مؤسسها.

[اجعل بينك وبين صنم الإفرنج بونا شاسعاً ..
فعهد وميثاقه لا يساويان حبة شعير ..
خذ النظرة من عين الفاروق ..
وضع القدم الجريء في العالم الجديد ..]

محمد إقبال

الهوامش :

- ١- بمناسبة حصول القاص نجيب محفوظ على جائزة نوبل.
- ٢- دراسات في النقد الأدبي ، د. أحمد كمال زكي ، دار الأندلس ص: ١٩١.
- ٣- قلعة أكسل ، إدمون ولسون ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ١٠٥.
- ٤- البحث عن المعنى دراسات نقدية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د. عبد الواحد لؤلؤة ، ص : ٨٦.
- ٥- رواه البخاري ، فتح الباري ، ٣٣٦/٦ ؟ حديث رقم ٣٢٧٥.
- ٦- انظر عن الحلاج الفتاوى لابن تيمية (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ٢٣٩،/١١

- ٧- انظر الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، فاطمة الزهراء محمد سعيد.
- ٨- مجلة فصول ، مجلد ٢ ، العدد الأول أكتوبر ١٩٨١ العدد الخاص عن صلاح عبد الصبور ، ص ٣٧ ، من مقال د. عز الدين إسماعيل ، عاشق الحكمة حكيم العشق
- ٩- قصة قارون في مجلة البيان ، عدد ١٤ ، ص ١٥ ،
- ١٠- في الجهود الروائية ما بين سليم البستاني ونجيب محفوظ ، ص ١٠٥ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د. عبد الرحمن ياغي.
- ١١- الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، فاطمة الزهراء محمد سعيد ص ١٤ ،
- ١٢- في الجهود الروائية ما بين سليم البستاني ونجيب محفوظ ، ص ١٤ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د. عبد الرحمن ياغي.
- ١٣- المصدر السابق ، ص ٩٦ في ١١ و ٩ ،
- ١٤- المصدر السابق ، ص ٩٤ في ١٢ و ٩ ،
- ١٥- (عشوائية) تعكس رؤية الشاعر الجاهلي في الموت ، انظر معلقة زهير: رأيت المنيا خبط عشواء من تصب. ومعتقد المسلم أن الموت من- مقدر حكيم.
- ١٦- دراسات في النقد الأدبي ، د. أحمد كمال زكي ، دار الأندلس ، ص ١٩٢ ،
- ١٧- الرمزية في أدب نجيب محفوظ / ٢٢٢٥ وما بعدها.
- ١٨- التفسير النفسي للأدب ، د. عز الدين إسماعيل ، دار المعارف ١٩٦٣ ، ص ٢٦٠-٢٦١ .

معالم من تاريخ الخلفاء الراشدين

-٢-

محمد بن صامل السلمي

٣- سيادة العدل والمساواة بمفهومها الإسلامي الصحيح :

وذلك أن التفاضل بين البشر قوامه الميزان الذي قرره الله في كتابه. قال تعالى: ((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)) [الحجرات/١٣] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى» (١).

والأدلة الواقعية والتاريخية على سيادة هذا المبدأ في عصر الخلفاء الراشدين أكثر من أن تحصى ، فهذا الخليفة الأول أبي بكر الصديق يطلب في أول خطبة له من الرعية أن تقوم ما ترى فيه من خطأ أو عوجاج (٢).

وهذا عمر بن الخطاب يتقاضى وهو خليفة مع أبي بن كعب الأنصاري عند قاض المدينة في عهده زيد بن ثابت ، فيأتي عمر وأبي ابن كعب إلى مجلس القضاء ، ويقول زيد لعمر: لو طلبتني يا أمير المؤمنين لأحضر عندك. فيرد عليه عمر : مقررأ قاعدة مهمة من قواعد التقاضي وهي قاعدة المساواة: في بيته يؤتى الحكم.

ثم يحاول زيد-من باب الإكرام للخليفة-أن يدني مجلس عمر ، فيأبى عمر إلا أن يجلس مع خصمه على قدم المساواة ويقول لزيد : هذا أول الجور منك.

وبعد أن يدلى كل من الخصمين بحجته ، يحكم زيد باليمين على عمر ثم يطلب من أبي بن كعب أن يعفى أمير المؤمنين من اليمين لكن عمر أصر على تنفيذ ذلك ، فيحلف كما حكم القاضي ، وبعد أن استحق الأرض المتنازع عليها قضاء وهبها عمر لأبي بن كعب (٣).
ومرة جاء رجل من المسلمين فقال لعمر : اتق الله ، فقال أحد الحاضرين : أتقول ذلك لأمر المؤمنين ، فرد عليه عمر بقوله : دعه يقلها فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها منكم (٤).

ومن مظاهر المساواة والعدل توزيع الفيء وأخماس الغنائم على كافة المسلمين فإن عمر رضي الله عنه لما دون ديوان العطاء جعل لكل مسلم حق في ذلك العطاء حتى المواليد ، فبمجرد ولادة طفل لأحد المسلمين يسجل اسمه في الديوان ويفرض له عطاؤه وكان عمر يقول : لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه دون أن يسعى لطلبه (٥). ويقول أيضاً : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله (٦).

وقد وصى رضي الله عنه الناس بنفسه في عام الرمادة فامتنع عن أكل اللحم والسمن حتى توفر ذلك لعامة الناس ومضت أزمة المجاعة وجاءهم الفرج من الله.
يقول أنس رضي الله عنه : غلا الطعام بالمدينة فجعل عمر رضي الله عنه يأكل الشعير وجعل بطنه يصوت فضرب بيده على بطنه وقال : والله مما هو إلا ما ترى حتى يوسع الله على المسلمين (٧).
وعن طاووس قال: جذب على عهد عمر فما أكل سمناً ولا سمينا حتى أخصب الناس (٨).

٤ - سيادة مبدأ الشورى قاعدة للتعامل بين الحاكم والمحكوم :

مبدأ الشورى من المبادئ الإسلامية الهامة التي توفر الأمن والطمأنينة للأفراد والاستقرار السياسي للدولة ، ويؤدي إلى إشاعة المحبة وبت روح التعاون والتناصح بين الحاكم والرعية ، وهو ضروري حتى لا ينفرد الحاكم بالأمر والرأي الذي قد لا يكون صواباً فإن رأي الجماعة خير من رأي الواحد لأنه يأتي بعد نظر ودراسة وتفكر في الأمر وعواقبه. ومن ثم تضمن الأمة أكبر قدر من إصابة الحق، قال ابن عطية: الشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب (٩).

وقد قال تعالى مثنياً على المؤمنين ومعدداً بعض صفاتهم: ((وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)) [الشورى/٣٨].

قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: كان الأنصار قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه فمدحهم الله به. ونقل عن الحسن البصري أنه قال : انهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون فمدحوا باتفاق كلمتهم (١٠).
وقال تعالى مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)) [آل عمران: ١٥٩].

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن كما قال الحافظ في الفتح (١١) عن الحسن قال : قد علم أنه ما به إليهم حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده.
فالشورى مشاركة في المسؤولية وضمانة من الانحراف ولهذا بوب البخاري رحمه الله في صحيحه بهاتين الآيتين باباً في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (١٢).

وهذا فقه عميق ونظر دقيق من البخاري رحمه الله لأهمية الشورى وكون العمل بها اعتصام بالكتاب والسنة وبعد عن الانحراف والبدعة، مما أحوج دعاة الإسلام اليوم إلى تدبره وتفهمه لتسلم دعوتهم من القرارات العشوائية، والاتجاهات الفردية. وقد وردت الآثار عن الأئمة في مدح الشورى وبيان فضائلها. قال الحسن البصري: ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم، وفي لفظ: إلا عزم الله لهم بالرشد أو بالذي ينفع (١٣). وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قط!! إذا حزبني أمر شاورت قومي فعملت الذي يرون فإن أصبت فهم المصيبون وإن أخطأت فهم المخطئون (١٤). وقال البخاري: كان الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم "يستشيرون الأئمة من أهل العلم في الأمور المباحة فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره" (١٥). وقال ابن العربي: الشورى ألفة للجماعة، ومسار للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا (١٦).

ولقد كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافة الخلفاء الراشدين من بعده تطبيق واقعي لمبدأ الشورى، فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأتيه الوحي من الله يسدده يصفه أبو هريرة رضي الله عنه بقوله: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٧). وقد شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمور العامة كما في القتال يوم بدر، وفي أسرى بدر وفي أحد والخندق والحديبية بل حتى في الأمور الخاصة، كما في قصة حادثة الإفك. أما الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم جميعاً فقد وقعت منهم في خلافتهم أمور كثيرة توضح التزامهم بهذا المنهج الشوري منها: تشاورهم في اختيار الخليفة، ومنها استشارة أبي بكر رضي الله عنه في قتال أهل الردة، وقد أخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضى به قض بينهم وإن علمه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلمائهم واستشارهم. وإن عمر كان يفعل ذلك (١٨). وقد كان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شباناً (١٩). وقد شاور عمر الصحابة في الصحابة في إملاص المرأة (٢٠)، وأيضاً في قتال الفرس (٢١)، وفي دخول الشام لما وقع الطاعون بها (٢٢). وقد ترك عمر الخلافة من بعده شوري.

وشاور عثمان رضي الله عنه الصحابة أول خلافته فيما يفعل بعبيد الله بن عمر لما قتل الهرمزان ظناً منه أن له في قتل أبيه مدخلاً (٢٣).. وشاور الصحابة في جمع الناس على مصحف واحد، قال علي بن أبي طالب: "ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا" (٢٤)...

فهذه الوقائع من تاريخ الخلفاء الراشدين توضح بما لا مزيد عليه التزامهم بمنهج الشورى في كافة الأعمال المحتاجة إلى ذلك مثل بعث الجيوش واختيار القادة وحكام الأقاليم والولايات والاجتهاد في الأحكام الشرعية التي لا نص فيها بخصوصها.

وقد كانت الشورى طريقاً ومنهجاً في اختيار الخلفاء الأربعة للإمامة العظمى، وإن اختلفت صور المشاورة، وقد قال عمر رضي الله عنه: من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي يبايعه (٢٥). مما يدل على التزام الشورى في البيعة والخلافة.

٥- قيام الجهاد والعلاقات الدولية في عهدهم على مقتضى الشرعية:

من المعلوم أن الدولة الإسلامية دولة متميزة في منهجها وتصورها وسياستها لأنها تأخذ أحكامها ونظمها من النصوص الشرعية في الكتاب والسنة ولذا فإن علاقتها مع غير المسلمين محكومة بتلك النصوص والأحكام.

ولقد أقام الخلفاء الراشدون علاقاتهم مع غير المسلمين على موجب تلك الأحكام. فالأرض إما. ١- دار إسلام : وتطبق فيها أحكام الشريعة على كافة المقيمين فيها سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، لأن غير المسلم لا بد أن يدفع الجزية للأحكام الإسلامية التي شرعها الله في حق أهل الذمة ، وللشروط التي وضعها الخلفاء ، وهي مفصلة في كتب الفقه ومنها أن يلتزموا بأداب المسلمين الظاهرة ولا يرفعوا صليباً ولا يشربوا خمرًا ولا يؤذوا مسلماً ولا يبنوا كنيسة ولا يدعوا أحداً إلى دينهم ولا يرفعوا دورهم فوق دور المسلمين ، ولا يحتفلوا بأعيادهم ظاهراً ولا ينشروا شيئاً من كتبهم بين المسلمين (٢٦).

ب - أو دار كفر ، وتنقسم هذه الدار إلى قسمين : دار صلح وعهد ، ودار حرب. فأهل الصلح والعهد يوفى لهم بعهدهم إذا حصل منهم الوفاء ، والعهد والصلح لا يكون مستمراً إلى الأبد بل لا بد من توقيته بأجل ، ومن العلماء من جعل أطول مدة للعهد والصلح عشر سنين أخذاً من أطول مدة صالح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين في صلح الحديبية (٢٧). أما أهل الحرب فلا علاقة بينهم وبين المسلمين إلا السيف والقتال والأخذ بكل طريق ومرصد -إذا أقيمت عليهم الحجة وكان بالمسلمين قوة واستطاعة- لإرغامهم على الخضوع لله ولدينه وليكون الدين كله لله ، قال تعالى : ((فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [التوبة / ٥].

وقد طبق الخلفاء الراشدون هذه الأحكام بأعلى وأتم ما يكون التطبيق وكسرت في عهدهم أكبر دولتين في العالم في ذلك الزمن الدولة الفارسية والدولة الرومانية وأورث الله المسلمين أرضهم وأموالهم وأنفقت كنوزهما في سبيل الله وخضعت أراضيهم لحكم المسلمين وأصبحت دار إسلام ، ومن لم يسلم من أهل تلك المناطق طبقت عليه أحكام أهل الذمة وأخذت منه الجزية مقرونة بالذل والصغار كما أمر الله تعالى : ((فَاتَّبِعُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)) [التوبة: ٢٩]. كما ضربوا العشور على تجار غير المسلمين إذا مروا بأرض الإسلام أما المسلمون فلا يؤخذ منهم عشور ولا ضرائب وإنما تؤخذ منهم الزكاة المفروضة، ووضع الخلفاء الراشدون الخراج على الأرض حسب التفصيلات المقررة في مواطنها.

أما جزيرة العرب فقد أخرجوا منها اليهود والنصارى ولم يبق فيها إلا مسلماً تنفيذاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيته في آخر حياته حيث قال : «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً» (٢٨) ، وقوله: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب (٢٩).

٦- الحماس في نشر الإسلام:

وظيفة الدولة الإسلامية هي نشر الدين حتى يعبد الله وحده، ولهذا عرف ابن خلدون الخلافة بقوله: هي نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا (٣٠).

والدولة تنفذ هذه الوظيفة بالجهاد وفتح البلدان وبالدعوة والتعليم لأوامر الدين ونواهيته وكافة أحكامه الشرعية. فحركة الجهاد والفتح العسكري لا بد أن يصحبها ويتبعها الدعوة والمعلمون ليفقهوا الناس في دينهم وهذا التلازم بين الفتح العسكري والتعليم أمر ضروري لا بد منه لاستقرار الدعوة والدولة ولا بد من ملاحظة التوازن المطلوب في هذا الجانب، فبقدر التوسع في الأرض يكون التوسع في الدعوة والتعليم حتى لا يختل ميزان التربية وتحدث الخلطة في الصف الإسلامي وتتوسع الفجوة بين الفاتحين وسكان الأراضي المفتوحة مما يتسبب في حدوث ظواهر سلبية تؤثر في تماسك الصف الإسلامي ووحدته السياسية والفكرية.

وقد بذل الخلفاء الراشدون ما استطاعوا في سبيل حدوث هذا التوازن بين حركة التوسع الأفقي في فتح البلدان وبين التوسع الرأسي في تعليم الناس وتفقيهم في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولكن رغم وجود البذل والحماس في ميدان التعليم والتربية على تعاليم هذا الدين إلا أن الملاحظ أن التوسع في الأرض كان سريعاً وواسعاً فقد فتحت العراق وما وراءها والشام ومصر في سنوات قليلة معدودة فلم يكن في مقدرة الطاقة البشرية في ميدان التربية والتعليم استيعاب الأعداد الهائلة من سكان تلك المناطق وتعليمها كما لم يكن الزمن كافياً لرسوخ التعاليم الإسلامية في نفوس كثير منهم مما ساعد - مع غيره من العوامل - فيما بعد على وجود خلطة فكرية وظواهر سلبية دخيلة على النهج الإسلامي مما سبب ظهور الفرق والأهواء المتشعبة.

وبعد فهذه جملة من أهم المعالم البارزة في تاريخ الخلافة الراشدة أردنا بالتنبيه إليها توجيه أنظار دعاة الإسلام إلى الاستفادة من هذا التاريخ المشرق والسير على منوالهم فإنهم القوم بهم يقتدى وبهديهم وسنتهم يسلك ويتبع، والله الموفق والهادي.

الهوامش :

- ١- المستند للإمام أحمد بن حنبل ٤١١/٥
- ٢- ابن هشام ، السيرة النبوية ٦٦١/٢ ، والطبري ٢١٠،/٣
- ٣- أخرج القصة ابن شبة في أخبار المدينة ٧٥٥/٢-٧٥٦ بإسناد صحيح من طريقتين عن الشعبي.
- ٤- ابن الجوزي : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ص ١٥٥
- ٥- ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٩٩/٣ ، ومسند أحمد حديث رقم ٢٦٢ ، ط شاكر.
- ٦- ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٩٩،/٣
- ٧- ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٣١٣/٣ ، وابن شبة ، أخبار المدينة ٧٤٢/٢ ، ومنتخب كنز العمال ٣٩٧،/٥
- ٨- وابن شبة ، أخبار المدينة ٧٤٢،/٢
- ٩- المحرر الوجيز ٢٨٠،/٢
- ١٠- تفسير القرطبي ٣٦،/١٦
- ١١- فتح الباري ٣٤٠،/١٣
- ١٢- انظر صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب (٢٨).
- ١٣- فتح الباري ٣٤٠/١٣ ، وقال ابن حجر: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي حاتم بسند قوي.
- ١٤- تفسير القرطبي ٣٧،/١٦

- ١٥- الصحيح ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(٢٨).
- ١٦- أحكام القرآن ١٨٦٨،/٤
- ١٧- أشار إليه الترمذي في كتاب الجهاد من سنته بقول : ويروى عن أبي هريرة ، وقال الحافظ في الفتح ٣٤٠/١٣ ، رجاله ثقات إلا أنه منقطع.
- ١٩- ذكره الحافظ في الفتح ٣٤٢،/١٣
- ٢٠- صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(٢٨).
- ٢١- صحيح البخاري ، كتاب الديات ، باب (٢٥).
- ٢٢- فتح الباري ٣٤٢،/١٣
- ٢٣- المصدر السابق.
- ٢٤- ذكره الحافظ في فتح الباري ٣٤٢/١٣ ، وقال رواه ابن سعد وغيره بسند حسن.
- ٢٥- ذكره الحافظ في فتح الباري ٣٤٢/١٣ ، وقال أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ، وسنده حسن.
- ٢٦- رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب (٣١).
- ٢٧- انظر ذلك مفصلاً في كتاب أحكام أهل الذمة للحافظ بن القيم.
- ٢٨- حكى الطبري في كتاب اختلاف الفقهاء (ص ١٤) الإجماع على أن الصلح بين المسلمين والكفار لا يكون إلى الأبد.
- ٢٩- رواه مسلم ١٣٨٨/٣ ، حديث رقم (١٧٦٧).
- ٣٠- طرف من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة.
- ٣١- المقدمة /١٩١.

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

السلام في أفغانستان

خطط ومكائد

حينما حصل الانقلاب الشيوعي في أفغانستان على محمد داود لم يدر بخلد الشيوعيين السوفييت، ولا عملائهم الشيوعيين الأفغان أن حرباً - كالحرب التي حدثت في أفغانستان - ستحدث ، ولم يقدروا أن الشيوعية ، بما لها من جبروت ، سوف يهزمها شعب فقير وشبه منعزل.

ولذلك ، وبعد أن تأكد للسوفييت عقم محاولاتهم في إخضاع هذا الشعب ! وفي تسليط شرذمة من عملائهم لإذلاله وكسر شوكته ! لم يبق من الحكمة إلا أن يفكروا بطريق غير الطريق العسكري يحققون به ما عجزت الآلة العسكرية عنه ، وضمن هذا الإطار ينبغي أن تفهم التحركات الأخيرة للحكومة السوفييتية ، وتأتي الخطوة الأخيرة للسوفييت في سياق إطار عام من الانفراج الدولي بين القوى الكبرى ، ومن محاولات ترميم النظام الشيوعي في داخل الدول التي تتبناه ، بعد أن وصلت حالات جموده ونفور الناس منه إلى منتهاهها. وكانت مبادرة غورباتشيف التي اقترحها في خطابه في الأمم المتحدة في ١٩٨٨/١٢/٧ تتضمن النقاط التالية :

وقف إطلاق النار ابتداءً من ١٩٨٩/١/١م.

بقاء الأطراف المتحاربة في الأماكن التي تسيطر عليها.
 وقف إمداد السلاح لأي من الأطراف منذ ١٩٨٩/١/١ م.
 تأليف حكومة ذات قاعدة عريضة ، حسب قرار الأمم المتحدة.
 إرسال قوة من الأمم المتحدة إلى كابل وبعض المراكز الاستراتيجية.
 عقد مؤتمر بواسطة الأمم المتحدة في فترة قريبة حول حياد أفغانستان ونزع السلاح فيها.
 تساهم روسيا في تضييد جراح الحرب مع الأمم المتحدة والدول الأخرى.
 إنشاء قوة سلام دولية تكونها الأمم المتحدة من أجل إعادة بناء أفغانستان.
 ومن محاولة البحث عن الأسباب والأهداف وراء هذه المبادرة، فإن الدارس يخرج بالنتائج التالية:
 ١- حفظ ماء الوجه ، والتغطية على الهزيمة الفعلية، حيث إن السوفييت فشلوا في تحقيق ما يريدون ،
 والآن يعرضون خطة انسحاب تحت مظلة الأمم المتحدة.
 ٢- إن التركيز على حياد أفغانستان ونزع السلاح منها ، يعني أن السوفييت لا يطمنون إلى الشعب
 الأفغاني وبخاصة بعد معرفتهم بمدى جنابيتهم عليه.
 ٣- محاولة تمرير العناصر الشيوعية خلال حكومة ذات قاعدة عريضة تضمهم وتضم غيرهم،
 بعد فشلهم في إقامة حكومة شيوعية خالصة، وفي هذا اعتراف بالفشل من جهة، ومحاولة التزام
 بأضعف الإيمان بعملائهم وعدم التخلي عنهم.

نقاط الالتقاء والافتراق في الموقف السوفييتي والأمريكي :

إن الموقف الأمريكي يتلخص بأن يجلو السوفييت عن أفغانستان وأن تسقط الحكومة الموالية
 للسوفييت ، وأن تقوم حكومة لا أثر للنفوذ الشيوعي فيها ، ولا بأس أن تكون موالية لهم.
 والأمريكان والروس متفقون على عدم تشجيع قيام حكومة إسلامية ، فليس من مصلحتهم جميعاً أن
 يكون وجه هذه الدولة إسلامياً واضحاً: تشريعاً ، وتوجهاً ، وإذا كان بإمكان روسيا - باعتبارها قوة
 كبرى مجاورة لأفغانستان - أن تضغط من أجل ذلك ؛ فإن أمريكا لها وسائلها أيضاً حيث يمكنها أن
 تضغط إما بشكل مباشر عن طريق قطع إمدادات الأسلحة ، وإما بطريق غير مباشر عن طريق
 الطلب من إحدى وكيلاتها في المنطقة للضغط على المجاهدين.

موقف باكستان وإيران :

لابد من الحديث عن موقف كل من باكستان وإيران باعتبارهما جارتين لأفغانستان، وموقفهما
 يفهم على ضوء الانفراج بين السوفييت والأمريكان، ثم على ضوء التغيرات الأخيرة في كل من
 الدولتين.

فباكستان بوتو غير باكستان ضياء الحق ، وبوتو - التي لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد اتفاقات
 وتطمينات ، وتطابق في بعض وجهات النظر بينها وبين أمريكا - لا تستطيع إلا أن تنفذ ما تتطابق
 فيه النظرتان ، وأهمه كبح المطالبة بحكم إسلامي صحيح في أفغانستان، وتلتقي في ذلك مع إيران ،
 حيث إن وحدة الأصل الذي ينحدر منه حكام طهران وحكومة باكستان الآن يساعد على ذلك.
 فإيران التي تقدم نفسها للمسلمين - دون حق - كناطق رسمي باسمهم في العالم تعلم جيداً أن قيام حكم
 إسلامي للمجاهدين في أفغانستان يخالف في أصوله وفروعه أسلوبها ؛ أمر لا يسرها ، بل هو من
 قبيل المضاربة والمنافسة التي. لا ترتضيها.

موقف المجاهدين :

إن موقف المجاهدين في هذه الفترة يتمتع ببعض النقاط القوية ، ومن ذلك أن السوفييت تجاوزوا الحكم الشيوعي في أفغانستان واتصلوا بهم مباشرة ، وكذلك اعتراف السوفييت بسيطرة المجاهدين على مواقعهم ، وإظهارهم أنهم ماضون في استكمال، انسحابهم. كما إن إصرارهم - أي المجاهدين - على مخاطبة روسيا بصوت واحد له دلالة طيبة، وقد لخص موقف المجاهدين قلب الدين حكمت يار في مؤتمر صحفي عقده في بيشاور بتاريخ ١٠ /١٢ /١٩٨٨م نفتطف منه بعض الفقرات :

وقف إطلاق النار المقترح :

إن قضية وقف إطلاق النار في منظورنا قضية غير معقولة وغير عملية ما لم يتم استئصال الأسباب التي كانت، وراء نشوب القتال في أفغانستان بادئ ذي بدء والتي لا تزال قائمة، وفي مقدمتها عدم انسحاب القوات الروسية التام من أفغانستان ، وعدم سقوط النظام الشيوعي الألعبوة ، المملخة يدها بدماء مئات الألوف من الأبرياء من أبناء الشعب.، وإن أي اتفاق على غير هذا الأساس سيكون خداعاً للشعب.

نزع السلاح :

لن نرضى بتاتاً باقتراح نزع السلاح في أفغانستان تحت أي ظرف من الظروف ، حتى في المرحلة التي ستعقب النصر. إن دولة كأفغانستان مجاورة لدولة توسعية كروسيا لا يمكن لها المحافظة على استقلالها السياسي عن طريق الاحتفاظ بجيش محدود الحجم ، أو بشعب منزوع السلاح.

قوات حفظ السلام :

إننا نعتبر إرسال أي قوات أجنبية إلى أفغانستان تحت أي اسم كان أو أية ذريعة كانت اعتداء خارجياً ، وإننا سنجابه هذا الأمر بكل ما أوتينا من قوة. كما انه سيكون بمقدور أمتنا في مرحلة ما بعد الانسحاب الروسي وضع حلول كفيلة لتسوية مشاكلها وبدون الحاجة إلى عون من أي قوى خارجية. وبالجملة فإننا نكرر مرة أخرى أن الحل الوحيد للمشكلة الأفغانية هو الانسحاب غير المشروط للقوات الروسية ، وسقوط نظام نجيب الله ، وضمان حق تقرير المصير للشعب الأفغاني. ومن جهة أخرى نقلت وكالة أنباء البنين التابعة للمجاهدين في ٧/١٢/١٩٨٨م رفض الشيخ سياف وعدم اعتقاده بجدوى التفاوض مع الروس قبل إتمام انسحاب قواتهم بالكامل من أفغانستان.

المحاذير :

إن ما يجب أن ينتبه إليه المجاهدون هو أن روسيا التي فشلت في إملاء رغباتها عن طريق القتال قد تنجح عن طريق التفاوض والمناورات ، وروسيا ماضية في خططها الخبيثة فهي تحرص على شق المجاهدين ، وعلى مخاطبة كل فريق على حدة ، فقد اتصلت بالملك السابق وله أنصاره وعملاؤه ، وكذلك حرصت ش أن تتصل بإيران ومن يلوذ بها من أنصارها وعملائها ، قبل أن تلتقي مع قيادة المجاهدين في باكستان.

وروسيا تحرص كل الحرص على اللعب على التناقضات ، وتكبير الصغير من الخلافات الفرعية ، كما أنها تحرص على أن ينضم إليها في عدائها وخصومتها للمجاهدين وما يمثلون؛ لا أمريكا وممثلوها، وإيران وبطانتها؛ بل أناس وفرقاء من المجاهدين أنفسهم ، فهل يمكنها قادة المجاهدين من ذلك ؛ نسأل الله أن يدفع البلاء.

بعد فراغنا من كتابة التعليق السابق عن آخر أخبار القضية الأفغانية ! وصلنا هذا التقرير الذي نضعه بنصه ولا يختلف في فحواه عما أشرنا إليه.

يحول حكام إيران اهتمامهم من حرب الخليج ، إلى مرحلة حاسمة من صراع القوى في أفغانستان ، ومن المرجح أن يشاركوا في مباحثات الصفقة الأخيرة التي سيتمخض عنها نشوء حكومة ائتلافية يستبعد الشيوعيون منها ، وقد يشكل ائتلاف كهذا أفضل حل للسوفييت -الذين باتوا على استعداد للتخلص من نظام نجيب الله - يحفظ لهم ماء الوجه ، ويرضي باكستان ، حسب معلومات نشره (Foreign Report)(١) بهذه التحركات السرية الأخيرة.

ولكل من إيران وباكستان -كما للاتحاد السوفييتي - مصلحة قوية في إقامة حكومة مستقرة ، وغير معادية في أفغانستان. وتشترك إيران مع أفغانستان في حدود دولية مفتوحة، وزعماء إيران الدينيون توافقون لرؤية رفاقهم الشيعة - الذين لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة من الشعب الأفغاني السني - يظفرون بنصيب اكبر من صفقة قادمة.

وتتخذ ثمانية أحزاب شيعية أفغانية من إيران قاعدة لها ، وتعد "حركة إسلامي" التي يقودها شيخ محسني - من قندهار - أكبر تلك الأحزاب ، وتريد إيران أن يلعب محسني دوراً رئيسياً في أي تسوية في أفغانستان.

وقد يكون لأربعة أحزاب صغيرة أخرى تحظى بدعم إيران وتنشط في الأماكن النائية دوراً في تسوية مقبلة ، وعلى أية حال فإن تلك الأحزاب تبدي منذ وقت طويل رغبتها في إنشاء قاعدة سياسية بدلاً من مقاتلة الروس ، كما أن إيران تتودد منذ مدة إلى البروفسور برهان الدين رباني أهم زعماء الأفغان الذين يتخذون من بيشاور في باكستان قاعدة لهم ، وكان رباني قد مكث في زيارته الأخيرة ل طهران أطول من الفترة المقررة للزيارة ، كما أنه استقبل من قبل الرئيس على خامنئي استقبال رؤساء الدول ، ويتزعم رباني حزب "الجمعية الإسلامية" وهي أكبر الجماعات في إقليم هرات والإقليم الشمالي ، كما أن لديها أكبر عدد من المقاتلين في ساحات القتال ، وسيكون رباني في أي ائتلاف يخلف نجيب الله.

وقالت مصادرنا إن رباني - خلال زيارته ل طهران - وعد الشيعة الأفغان باحترام مطالبهم الهادفة إلى الحصول على تمثيل عادل ومشاركة في السلطة في ائتلاف مقبل (٢) ، كما علمت مصادرنا أن " فورنتسوف" نائب وزير الخارجية السوفييتي وسفير بلاده لدى أفغانستان يشدد على ائتلاف بين الأحزاب السنية والشيعة ، ويريد الروس ضم الحزب الشيوعي إلى هذا الائتلاف ، ولكنهم يعلمون جيداً برفض المجاهدين لذلك ، ولذلك فإن فورنتسوف يناهض نفسه عن نجيب الله.

وإن رئيسة وزراء باكستان الجديدة والضعيفة يهملها التوصل إلى حل يشجع عودة ملايين اللاجئين الأفغان إلى بلادهم في أسرع وقت ، الأمر الذي لن يكون إلا بوجود حكومة ائتلافية مستقرة وغير شيوعية في كابل.

ولكن يا ترى من سيكون في ذلك الائتلاف ؟ والجواب : يبدو أن أغلب الجماعات السنية والشيوعية ستدعى إلى ذلك باستثناء الحزب الإسلامي الذي يرأسه قلب الدين حكمت يار - والذي يعد من قبل منتقديه متطرفاً وقاسياً ومتعطشاً إلى السلطة (!!) (٣) - .

والقادة العسكريون الذين يدعمون المجاهدين يرون في وجوده حجر عثرة يمكن أن يخرب هذه الفرصة السانحة لانتقاء هذه الجماعات مع بعضها.

وقد التقى المبعوث الروسي فورنتسوف وآخرون بالملك المخلوع ظاهر شاه الذي يعيش في روما منذ خلعه عام ١٩٧٣م والذي يمكن أن يلعب دوراً من حيث إمكانية اجتماع هذه الجماعات عليه باعتباره شخصية غير سياسية (٤) ، ولكنه من الضعف والجبن بحيث لا يمكنه اقتناص الفرصة.

إن ائتلافاً يستبعد الشيوعية وحكمت يار ، ويضم غالبية الأطراف السنية والشيوعية ، قد يكون أفضل فرصة لأفغانستان لتجنب ما هو أسوأ ، المتمثل بتقسيم البلاد - بمزيد من سفك الدماء - إلى إقطاعات متناحرة.

الهوامش :

- ١- نشرة خاصة تصدر عن مؤسسة (الإيكونومست) .
- ٢- هذا رأى أصحاب النشرة ، وثقتنا بالأخ رباني أنه سيخيب ظن هؤلاء المتخربين.
- ٣- هذا دين أعداء الإسلام ، فكل من بدت منه صلابة في دينه ، وعدم قبول الدنيا يصفونه بأبشع الصفات.
- ٤- هكذا يقدمون الملك السابق على أنه شخصية غير سياسية! والحق أن له أنصاره ، وله من يعمل له ويؤيد أفكاره ، بالإضافة إلى دعم القوى الغربية له.

أخبار الجهاد الأفغاني حصار المجاهدين يصيب كابل بالشلل

إبراهيم الدهيمان

ذكرت صحيفة التايمز اللندنية بتاريخ ٨ ٢٠١٢/١٢/١٩٨٨ م إن إمكانية بقاء النظام الشيوعي في كابل في مرحلة ما بعد إكمال الانسحاب السوفييتي مقرون بمقدرته على مقاومة الحصار الاقتصادي الفعال الذي يفرضه المجاهدون على العاصمة كابل.

وتتضح قبضة المجاهدين على العاصمة كابل ذات الطقس الشديد البرودة في أوضح صورها حيث تقف قوافل من السيارات التي قد تزيد كل قافلة منها على ٢٠٠ سيارة ، أمام محطات الوقود.

كذلك يتحدث سكان كابل عن نقص شديد في المواد الغذائية الأساسية كالخبز ، وعن ارتفاع ملحوظ في أسعار السكر والشاي والخضروات.

ويرجع السبب الرئيسي وراء تلك الأزمات إلى الحصار الذي يضربه المجاهدون على الطرق الحيوية.

وجاء في العدد التاسع والأربعين من مجلة الجهاد الصادرة عن المجاهدين أن المجاهدين مازالوا يتقدمون في فتح المواقع ، وقد تمكنوا أخيراً من فتح (طورخم) الممر الشهير والشريان الحيوي الواصل بين أفغانستان وباكستان، واستولوا على نقطة التفتيش المهمة في هذا الممر وقد هرب إليهم (١٨٥) جندي أفغاني بعد هذا الفتح. ويحاول المجاهدون الآن مهاجمة منطقة (سرخيل) المهمة ، وأما في المناطق الأخرى فالوضع جيد بشكل عام بسبب ضعف الحكومة وانسحاب القوات الروسية.

قبل أسابيع معدودة من الآن خرج مئات من الطلاب التركستانيين المسلمين (الأويغور) (١) في جامعة مدينة أرومجي في مظاهرة في شوارع المدينة وهم يلوحون بلافتات ويطلقون شعارات ضد خصمهم التقليدي : المستوطنين الصينيين وذلك احتجاجاً على إعلان ظهر في أحد أروقة الجامعة يدعو إلى اتخاذ رجال الأويغور عبيداً ونسائهم جوارى.

وقالت سيدة تركستانية : "إننا في منظور الصينيين دائماً قوم غير متحضرين ولا نعرف النظافة" وعلق مسؤول صيني على الأحداث فقال : "إن هناك نفراً قليلاً ممن يتأمر بالخفاء ضد وحدة الوطن الأم ، وأضاف. إن أولئك هم خونة ومن حثالة الناس ولا يمكن التسامح معهم" ، وكانت آخر جولات المصادمات بين المسلمين والصينيين قد حدثت قبل سبع سنوات عندما خرج المسلمون في انتفاضة عارمة في مدينة كاشغر (٢) مستخدمين أسلحة نارية استولوا عليها من إحدى ترسانات السلاح الحكومية ، وقد استدعى جيش التحرير الشعبي لسحق الانتفاضة مما أدى إلى سقوط المئات من القتلى في صفوف المسلمين. وتخشى الحكومة الصينية من أن تكون أحداث كهذه امتداداً طبيعياً لما يحدث في الجمهوريات المسلمة في الاتحاد السوفييتي المجاور ، هذا بالإضافة إلى المشاعر الأخوية التي يكنها مسلمو تركستان - الذين يستقلون بلغتهم ودينهم وتاريخهم - لمسلمي الاتحاد السوفييتي مما يجعل أمر ولائهم السياسي لبكين مدار شكوك لدى الحكومة الصينية.

وكان الشيوعيون الصينيون قد قضاوا على آخر محاولة تحريرية قام بها مسلمو تركستان في عام ١٩٣٢ م واستمرت خمسة أعوام اضطر الصينيون حينها للاستعانة بالآلاف من القوات الروسية التي مكنتهم من سحق التمرد. ثم تعرضت البلاد إلى محنة أخرى إبان ما يسمى بالثورة الثقافية التي قادها (ماوتسي تونغ) هُدمت وأغلقت خلالها المئات من المساجد ، في حين قضت المزارع التعاونية على أسباب عيش الرعاة القرويين والتجار والمزارعين.

هذا وقد عمدت الحكومة الصينية إلى توطين أعداد كبيرة من الصينيين في إقليم تركستان وذلك لموازنة كفة السكان هناك. ففي الوقت الذي لم تكن فيه نسبة الصينيين تتجاوز الـ ١٠ % من مجموع السكان البالغ أربعة ملايين في عام ١٩٤٩ م باتوا اليوم يشكلون ما يربو على ٤٦ % من مجموع سكان الإقليم البالغ (١٤) مليون.

وبعد ما يزيد على نصف قرن من الحكم الشيوعي مازال التركستانيون يعيشون في عزلة اجتماعية شبه تامة عن الصينيين ، بل إنه من النادر تحدثهم باللغة الصينية ، أما الطلاب الجامعيون فيرفضون بشدة سياسة الدولة الهادفة إلى مزج الطلاب المنحدرين من عرقيات مختلفة في الوحدات السكنية الجامعية. ويحبذ مسلمو تركستان هذا النوع من الانفصال العرقي وذلك لأنه الأسلوب الوحيد الذي يتمكنون من خلاله المحافظة على هويتهم الإسلامية ، في حين أن أكثر ما يثير حفيظتهم هو ما يلاحظونه من عدم مساواة في توزيع قرص العمل لاسيما في المراكز الرسمية المهمة، حيث يشغل الصينيون معظم الوظائف الإدارية العليا والحساسة.

عن الاندبنديت ٢٠/١٠/١٩٨٨

المسلمون في فطاني

إبراهيم الدهيمان

تقع فطاني في شبه جزيرة الملايو جنوب شرق آسيا ، وهي إحدى ولايات مملكة فطاني... وتقع بين خطي عرض ٥ - ٨ شمال خط الاستواء ، أما الأمطار فإنها مستمرة طوال العام.. وتغطي الخضرة معظم أراضيها... وأنهارها تجري طوال العام. وتعتبر منطقة فطاني غنية من الناحية الزراعية والمعدنية... ولكن مع الأسف إن هذا الغنى يذهب إلى مملكة تايلاند... وأهم منتجاتها الأرز حيث تحتل تايلاند بما فيها فطاني المركز السادس في العالم في إنتاج الأرز (١).

وصول الإسلام إلى فطاني :

لا يُعرف بالضبط متى وصل الإسلام فطاني ولكن بدايته كانت عن طريق التجار العرب الذين وصلوها من الهند وسومطرة إضافة إلى التجار العرب الذين حملوا معهم الإسلام إذ أسسوا أول محطة لهم في كانتون في الصين حين كان طريق سفرهم إلى الصين عن طريق فطاني. وتروي الأخبار الفطانية وكتب التاريخ أنه في حوالي عام ٧٥١ هـ أسلم ملك فطاني وتبعه أفراد أسرته ووزرائه ثم الشعب. أما عدد السكان فأخر إحصائية في منطقة فطاني تذكر أنهم ثلاثة ملايين نسمة نسبة المسلمين فيها ٨٠% ، أما اللغة الرسمية فهي اللغة الملاوية وتكتب بالأحرف العربية وفيها كثير من الكلمات العربية ، بل وصل الأمر ببعض الفطانيين إلى اعتقادهم أن الدعاء لا يصح إلا بالعربية بل يستجاب ، أما تايلاند فتصر على أن اللغة الرسمية هي اللغة التايلاندية ، ويصر الفطانيون على التمسك بلغتهم وهي جزء من كيانهم رغم محاربة تايلاند لها.

أقسام فطاني :

تنقسم فطاني إلى ٤ مقاطعات هي.

فطاني : أصغر المقاطعات وعاصمتها فطاني وهي أكبر مرفأ بحري وجوي في البلاد. بنغازا (نارايتواس) : تقع على ساحل بحر الصين الجنوبي ومركزها بنغازا. ساتول(ساتون) : تشمل ولاية ساتول وجزءاً من مقاطعة سونكلا ، وتتبعها عدة جزر ، وهي أكبر المقاطعات وأوسعها. جالا(يالالا) : منطقة داخلية.

الاستعمار لفطاني :

استولى التايلانديون على فطاني عام ١٢٠١ هـ/١٧٨٦ م حيث هاجمها عدة مرات بعد فشل عدة محاولات وأخيراً استولوا عليها وقسموها إلى ولايات لإضعافها " فرق تسد " وبدأت ثورات الفطانيين تترى.

أمثلة لمحاربة تايلاند للإسلام في فطاني :

سنلخص بعض ما تفعله مملكة تايلاند لمحاربة الإسلام في فطاني :

١ - وافق وزير التعليم التايلاندي على لبس الطالبات الحجاب في المدارس إلا أن البوذيين حرضوا الطلاب والطالبات البوذيين على القيام بمظاهرات واحتجاجات سحب الوزير على أثرها قراره وقامت مظاهرات فعلاً مما اضطرهم إلى إغلاق الكلية في محافظة (جالا) وكان ذلك ومع الأسف بتحريض من المسؤولين البوذيين.

وتبلغ نسبة المسلمين في ولاية (جالا) ٨٥% أكبر نسبة في ولايات فطاني الأربع ، أما النظام المتبع الآن فهو منع الزي الإسلامي في المدارس والكلليات ، ومن تلبس اللباس الإسلامي مهددة بالطرد من الجامعة.

ومن وسائل طمس الإسلام في فطاني :

- ١ - تعقيم المسلمات.
 - ٢- تصوير ورسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في المدارس.
 - ٣- وضع تماثيل بوذا في المدارس.
 - ٤- تغيير الأسماء الإسلامية إلى بوذية.
 - ٥- إقامة المعابد وسط قرى المسلمين.
 - ٦- اغتصاب أراضي المسلمين وتوزيعها على البوذيين.
- ومع كل هذا الضغط مازال المسلمون متمسكين بدينهم والله الحمد ، ولن ينسى التاريخ مأساة شهر ذي الحجة عام ١٣٩٥هـ الموافق ١٩٧٥ م عندما قامت السلطات التايلاندية بذبح ٥ مسلمين في سابوري الأمر الذي تسبب في المظاهرات في جامع فطاني ، واستمرت قرابة شهرين استشهد فيها ١٦ مسلما من المدرسين والطلبة.
- ٢- وفي ١٩٨٧/١٢/٢٦ م قام تايلانديون من رجال الأمن وعددهم ٣٠ بهجوم على إحدى قرى فطاني ، وقاموا بجمع الفلاحين المسلمين وضربوهم وعذبوا أربعة منهم ثم رموهم بالرصاص ودفنوهم في مقبرة واحدة بدون صلاة.
 - ٣ - يتعرض المسلمون الآن في فطاني لأنواع من المآسي والفتن من إبادة وقتل جماعي، إضافة إلى إبادة الوجود الثقافي والاجتماعي لهم.
 - ٤- تقوم السلطات هناك بنشر الفساد وترويج المخدرات بين السكان وكذلك سرقة المواشي والممتلكات وهتك الأعراض.

انطباعات عامة عن فطاني :

لقد وفقني الله سبحانه وتعالى لزيارة هذا البلد (فطاني) الذي يقع في وسط دولة كافرة لا تأبه بالإسلام ولا تعترف به ، وهى تايلاند ، وقد شاهدت بنفسى ما يعانیه أبناء فطاني المسلمون من مضايقات كثيرة من قبل الحكومة لا لسبب إلا أنهم قالوا ربنا الله ، ولكن ومما يثلج الصدر هذه الصحوه العارمة التي بدأت في صفوف الشباب والشابات والإقبال الكبير على هذا الدين القويم من الجميع إلا أن تايلاند تخوفت من ذلك ، وأصبحت تصدر الإحصائيات بين كل فترة وأخرى وتبين بهذه الإحصائيات زورا أن الغالبية من أبناء فطاني ليسوا مسلمين ، بل وصل الأمر بحكومة تايلاند أن بدأت تهجر أعداداً كبيرة من البوذيين من مناطقهم في تايلاند وتسكنهم في مناطق المسلمين في فطاني بالقوة لتبقى النسبة في صالحهم.

وتقوم المدرسة الرحمانية في فطاني بجهود كبيرة لخدمة المسلمين في هذه البلاد ، ويشرف عليها أخوة نذروا أنفسهم لخدمة هذا الدين ، وهم والله الحمد مؤهلون من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وتشرف على تدريس الشباب والفتيات وكذلك الكبار.

وكانت زيارتنا لهذا البلد في رمضان حيث وجدنا سنة الاعتكاف في معظم مساجدهم بل منهم التجار الذين تركوا تجارتهم واعتكفوا بالمساجد ، إلا أن الخطر هناك يكمن في نشاط بعض الفرق المنحرفة عن الإسلام.

وإننا نهيب بالمسلمين ممن يهتمون بشؤون الأقليات الإسلامية أن يتداركوا إخوانهم هناك بتقديم الكتب المبسطة والمترجمة والتي تساعدهم على الفهم الصحيح للإسلام.

الهوامش :

١- فطاني ، محمود شاكر.

الحضارة المعاصرة .. الوجه الآخر

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً

[... والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياء والنور؟! والدنيا مظلمة ملعونة ، إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة].

ابن تيمية

قصة تتكرر في مدن الغرب وربما في لندن أكثر من غيرها ننقلها بقلم كاتبها (آن دي كوري) لتصور لنا بعض ما يعاني الغرب عندما ابتعد كثيراً عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها. إن مثل قصة الشابة لورين بانس التي اغتيلت ببشاعة هذا الأسبوع أصبح - ويا للعار - أمراً مألوفاً، فلم تكدمضي بضع دقائق على مغادرتها للقطار حتى سقطت ميتة بفعل فاعل هاجمها بعنف وخنقها.

بماذا عسانا نواجه بناتنا وأبنائنا يا ترى؟! إن أقل ما يشعر به الرجل عندما يعتدي على امرأة تخصه ، في هذه الأيام هو الشعور بالعجز التام والنقمة والذنب.

إننا في رأيي بحاجة ماسة إلى أمرين اثنين :

أولاً : لا بد من تغيير جذري في مواقفنا فليس علينا فقط أن نعترف بوجود أماكن وأوقات خطيرة - هذا فضلاً عن البشر - بل علينا - أعني سكان لندن - أن نفر بحقيقة (مرة) وهي أننا نعيش في غابة يسودها قانون الغاب ، ويأكل القوي فيها الضعيف.

ولهذا فعلينا مثل سائر مخلوقات الغابة أن نتأقلم مع هذا الواقع ... بالطريقة التي تتكيف بها الحيوانات الضعيفة مع الأخطار المحدقة بها من قبل الحيوانات الأكثر قوة - هذه الحيوانات التي تدفعها شرستها إلى مطاردة فريستها والتربص بها والانقضاض دون نجاح مراراً عديدة ، حتى تفوز في آخر المطاف بالضربة القاضية.

ثانياً : لا بد أن نسعى لإحياء الهمم بإيقاظ الشعور الفطري لدى الرجل بضرورة حماية المرأة. في وقت مضى كانت التقاليد تجبر الرجل على أن يصطحب المرأة - ذاهبة أو آيية - بل كان المضيفون عند نهاية الحفل لا يتركون امرأة منفردة تغادر بيتهم دون رفيق ، إذ كانوا يحرصون على إيصالها إلى بيتها إما بصحبتهم أو على الأقل في سيارة أجرة فإن تعذر ذلك فإنهم يصرون على بقائها عندهم تبيت ليلتها بخفارتهم. كانت القاعدة هي أن حماية المرأة واجب ومسؤولية كل رجل.

إنه اعتراف بالحقيقة البيولوجية البسيطة وهي أن النساء أضعف بنية من الرجال ، ثم إن الذكور من الأولاد إذا تربوا على تفهم ضعف أخواتهم وهشاشة معدنهن فسوف يتكون لديهم شعور فطري بالمسؤولية تجاه تأمين كل النساء.

التعليق :

في هذه الغصة وأمثالها حقيقة مرة بالنسبة لدعاة ما يسمى بتحرر المرأة ، ولكنها حقيقة معروفة ومحسوبة في نظر الإسلام الذي أكرم المرأة، واعتبرها مخلوقاً مكرماً يحتاج ابتداءً إلى رعاية وصيانة ، فشرع من أجل ذلك التشريعات التي تحمي المرأة وتصون كرامتها. وهاهي كاتبة غير مسلمة تعترف وبملء فيها بـ (ضعف المرأة الجسمي وهشاشة معدنها) وليس في هذا تنقص منها ، كما أن الإسلام في نظره للمرأة لا ينتقص من قدرها، ولا يتنكر لدورها ، وإن المفهوم المعوج للحرية الذي تفهمه النساء العربيات ومن يفقدن سينزع الحصانة التي كانت تتمتع فيها المرأة في المجتمع ، وإذا نزع الحصانة فمن الصعب أن تعود في ظل الظروف الاجتماعية الدينية والأخلاقية التي نزعنا فيها. وليس غير الشرع الإسلامي ضماناً للمرأة تجد في ظلها كرامتها ، وتحقق من خلالها ذاتها ((إنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى))

رقم قياسي جديد في جرائم القتل

وصل عدد الذين سقطوا ضحية عمليات الإجرام في نيويورك مع نهاية عام ١٩٨٨ م إلى (١٨٤٩) قتيلًا، بما في ذلك ثمانية قتلى عشية أعياد الميلاد ، وستة آخرون في اليوم التالي بينما سجل أعلى رقم قياسي في عام ١٩٨١ وكان (١٨٤١) قتيلًا. وبهذا يكون عام ١٩٨٨ م هو الأعنف الذي تمر به مدينة نيويورك من حيث الجرائم ، ويعزو المسؤولون في المدينة هذا الارتفاع في عمليات القتل إلى تقشي تعاطى المخدرات بأنواعها. أي بمعدل خمسة قتلى في اليوم الواحد

عبادة الشيطان في ألمانيا

لا يعلم رجال الشرطة حتى الآن ما الذي حدث في مصنع المنسوجات المهجور في بلدة "كتويغ" في ألمانيا الغربية قبل ليال من عيد "هلوين" وأسفر عن موت المغني "غوردون بروير" ذي الستة عشر ربيعاً ، ويقول المحامون إن زميل "غوردون" في المدرسة "أوي" وتربُّه قد اعترف بقتله وأدخل مستشفى الأمراض النفسية للعلاج ، حيث أفاد "أوي" أن "غوردون" أخذه للمصنع المهجور ليريه "شيئاً ما" ! رافضاً الإفصاح عنه للشرطة ، أما زملاؤه في المدرسة فقد قالوا للمحققين إن المصنع المهجور كان المكان الذي اتخذوه ليعبدوا فيه الشيطان !! وتعتبر ألمانيا الغربية منذ فترة مركزاً رئيسياً لانتشار المفاهيم الدينية المتنوعة ، فقد أظهر إحصاء رسمي لطلبة الثانوية في "ميونخ" في بداية هذه السنة أن عشرين في المائة من الطلبة قد اشتركوا في جلسات روحية أو جلسات لتحضير الأرواح ، إلا أن الديانة الجديدة التي تكتسح البلاد كلها مخيفة فعلاً.. إنها عبادة الشيطان !! حيث اعترف أربعة في المائة من طلبة الثانوية في الإحصاء المذكور بالاشتراك ولو لمرة واحدة على الأقل في شعائر القداس الشرير ، ويقول الراهب البروتستنتي "فريدريك ويلهالم هاك" مؤلف عدة كتب عن هذه الديانات السرية. إن عدد الذين يدينون بشكل نشط بهذه الديانة الشيطانية في ألمانيا الغربية وحدها يبلغ عشرة آلاف شخص ، إلا أنه يصر على أن الشباب يتخذ طقوس هذه الديانة كوسيلة رخيصة للتسلية وتمضية الوقت ، حيث إنها لا تكلف الشباب شيئاً بالمقارنة بوسائل التسلية الأخرى ، مثل الذهاب للسينما (سعر التذكرة ستة دولارات) أو حضور حفلة رقص ديسكو

(سعر التذكرة عشرون دولاراً). ولكن مسؤولين آخرين لا يشاركون القس نظرته حيث يؤكد أحد المسؤولين عن مؤسسة اجتماعية هدفها متابعة مثل هذه النشاطات : إن هذه النشاطات منتشرة وقوية بشكل أكبر بكثير من مجرد كونها وسيلة لتمضية الوقت لدى الشباب ، بل إن نشاطها يصل إلى الأطفال في المدارس ، حيث طلب المساعدة منهم مدرسون في مدارس ابتدائية بخصوص أطفال "دون سن العاشرة ... " كما استشيرت المؤسسة في حالات تتعلق بأعضاء نشطين ومتحمسين لهذه الديانة "الشيطنانية" بقوة ولا تتجاوز أعمارهم ثلاث عشرة سنة.

ويتحدث أخصائيو المصحات النفسية عن قصص مخيفة عن تأثير هذه النشاطات والجلسات السرية على نفسيات الشباب الذي يخضع للإجهاات. ويقول أحدهم أنه عالج ثلاثة مراهقين من هوس يتعلق بالأرواح ، كان آخرهم فتاة عمرها خمس عشرة سنة كانت مقتنعة أنها حامل من الشيطان وأنه سيكون لهذا الحمل أو الجنين دور خاص في المستقبل... كانت مقتنعة بذلك رغم أنها في الحقيقة لم تكن حاملاً على الإطلاق ، ويضيف بأنه قد تمكن من علاجها إلا أنه غير متفائل لأنها عادت إلى نفس زملائها السابقين ، ويخشى أن يؤدي اشتراكها مرة أخرى في مثل تلك الجلسات السرية إلى عودة المرض النفسي إليها.

وقد أصبحت هذه النشاطات تثير الإزعاج لدرجة أن أولياء الأمور في إحدى القرى حاولوا منذ أسبوعين منع أحد عروض الألعاب السحرية في إحدى المدارس الابتدائية ، وعندما لم يستطيعوا منع العرض منعوا أطفالهم وعددهم أربعين من حضوره في المدرسة خوفاً أن يكون حضور أطفالهم لعرض مثل هذا هو الخطوة الأولى على الطريق لينضموا إلى الديانة "الشيطنانية" في المستقبل.

مجلة نيوز ويك - عدد ٥١

١٩٨٨/١٢/١٩

قديم جديد

أرحام تتعاطف

للشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله

طالما نعينا على المسلمين خصوصاً ، وعلى الشرقيين عموماً ، هذا التقاطع الذي شتت شملهم ، وفرق جامعتهم ، وصيرهم لقمة سائغة للمستعمرين ؛ وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب الكامنة في دينهم ، وأقمنا لهم الأدلة ، وضربنا لهم الأمثال ، وسقنا المثالات ، وجلونا العبر ، وكانت نذر الشر تتوالى ، فيمارون بها، وصيحات الضحايا منهم تتعالى ، فيصمون عنها والزمن سائر ، والفلك دائر ، وهم في غفلة ساهون.

دعوناهم إلى الجامعة الواسعة التي لا تضيق بنزير ، وهي جامعة الإسلام ، إلى الروحانية الخالصة التي لا تشاب بدخيل ، وهي روحانية الشرق ، وحذرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة ، والوطنيات المحدودة ، التي هي منبع شقائهم ، ومبعث بلائهم ، وبينا لهم أنها دسياسة استعمارية، زينها لهم سماسرة الغرب ، وعلماؤه وأدلاؤه ؛ وغايتهم منها التفريق ، ثم التمزيق ، ثم القضم ، ثم الهضم ، وأن الاستعمار -بهذه الدسياسة وأشباهها- يفسد فطرة الله فيهم، وينقض دين الله عندهم؛ ففطرة الله تلهم نصر الأخ لأخيه، وحماية الجار لجاره؛ ودين الله يوجب حقوق الأخوة، ويدعو إلى

إيثار الجار والإحسان إليه ؛ وهو بهذا يعمم التناصر ويقيم في الأرض شرعة التعاون ، فما من جار إلا له جار ، والناس كلهم متجاورون، جوار الدار للدار، فجوار القرية للقرية ، فجوار المدينة للمدينة ، فجوار الوطن للوطن؛ فإذا أخذوا بهذه الشرعة وأقاموا حدودها عم التناصر والتعاون ، وسدت المنافذ على المغيرين ، وعلى المفسدين في الأرض ولكن الاستعمار - بهذه الدسيسة - بدل شرعة الله بشرعة الشيطان ، فهو يقول لك : أقصر اهتمامك على دارك ، ولا تلتفت إلى دار جارك ، ويوسوس للجار بمثل ذلك حتى إذا أطاعاه خرب الدارين ، واستعبد الجارين. وما زال الاستعمار يروض المسلمين والشرقيين على قبول هذه الدسيسة، ثم على استحسانها ، ثم على الأخذ بها ، حتى تقطعوا في الأرض أمماً ليس منهم الصالحون ... ثم تقطعت الأمم جماعات ، وكلما أنس منهم مخيلة انتباه غرهم بما يغر به الشيطان: بشجرة الخلد وملك لا يبلى، وجرهم بما ينجر به الصبيان : ألفاظ فارغة وأسماء وألقاب ، وعروش من أعواد، في سيل واد؛ حتى ابتلع ممالكهم، واحتجن أموالهم، وتركهم مثلاً في الآخرين ؛ واعتبر ذلك بهذا الاستعمار الجاثم في شمال أفريقيا(١) ، وعد بذاكرتك إلى مبدأ أمره ، وكيف أكل العنقود حبة حبة ، متمهلاً مطاولاً ، يرقب الخلس ، ويدرع الغلس ؛ وكيف أطعمته غفلتنا الكراع ، أطعمته في الذراع ، حتى استوعب الجسد كله أكلاً ؛ وكيف كان يعتدي على الجزء ، فيقابله الكل بالهزاء ؛ اعتبر ذلك ترأنا ما أخذنا بغتة ، ولا سلبنا هذا الملك الضخم فلتة ؛ وإنما هي آثار تلك الدسيسة فينا ، استبدلنا التناحر بالتناصر ، والتعاوي بالتعاون؛ ثم نزلنا دركة . فأصبحنا وإن الأخ ليقتل أخاه في سبيل قاتلها معاً، ولو اتعظ الأخير منا بالأول لما مد الاستعمار هذا المد ، ولما بلغ فينا إلى هذا الحد.

الهوامش :

١. نشرت هذه الكلمة عام ١٩٥١ م.

الصفحة الأخيرة

مزيداً من هذه الخطوات

بدأ بعض المسلمين في بريطانيا يشعرون بالخطر الناجم عن ترك فلذات أكبادهم يتعلمون في المدارس الإنكليزية ، ويتربون على أيدي معلمين ومعلمات أتقنوا فن استهواء الطفل الصغير والتغريب به بأساليب هادئة مأكرة، فالدروس أكثرها قصص وألعاب ورياضة وبرامج تلفاز، والطفل المسكين يردد ما تقوله له المعلمة ، فيتعلم أغاني أعياد الميلاد و (بابا نويل). وفي هذه الأجواء فإن الآباء والأمهات المسلمين - وأكثرهم غير متعلمين - يشعرون بالفرح والبهجة لأن ولدهم أصبح يتكلم الإنكليزية كأهلها ، وفي العادة فإن الخيرين منهم لا يتنبهون للخطر إلا بعد فوات الأوان ، وبعضهم يحاول ترميم ما أفسده بإرسال ولده إلى المسجد في عطلة نهاية الأسبوع ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وبقيت المشكلة : كيف ننشئ مدارس خاصة لأولاد المسلمين ، تزودهم بقدر كافٍ من المعلومات والمعارف الإسلامية التي تحفظهم وتعصمهم من الذوبان، وهو تحدٍ يجابه المسلمين ، خاصة وأن من ينفق الأموال في وجوه الخير يحب إنفاقها في المساجد ، وهو في غفلة عن المدارس وخطورتها وأهميتها لإنقاذ الأجيال الشابة ، وبدأت تظهر بدايات تدعو إلى التفاؤل، وإن كانت

صغيرة الحجم ككل بداية ، فظهرت مدرسة الهجرة في برمنجهام، ومدرسة زكريا الثانوية للبنات في مدينة (باتلي) وقد سبق الأخ يوسف إسلام بإنشاء المدرسة الابتدائية الإسلامية في لندن. ولعل هذا يكون أول الغيث في تشييد المدارس ، وتشمير المسلمين عن ساعد الجد من أجل فهم واقع العصر ، والنظر إلى -المستقبل ، لا إلى الساعة الراهنة فقط.

تمت بحمد الله
